العرب والإسلام

في الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط

منذ الجاهلية الى سقوط الدولة الاموية

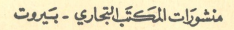
تأليف

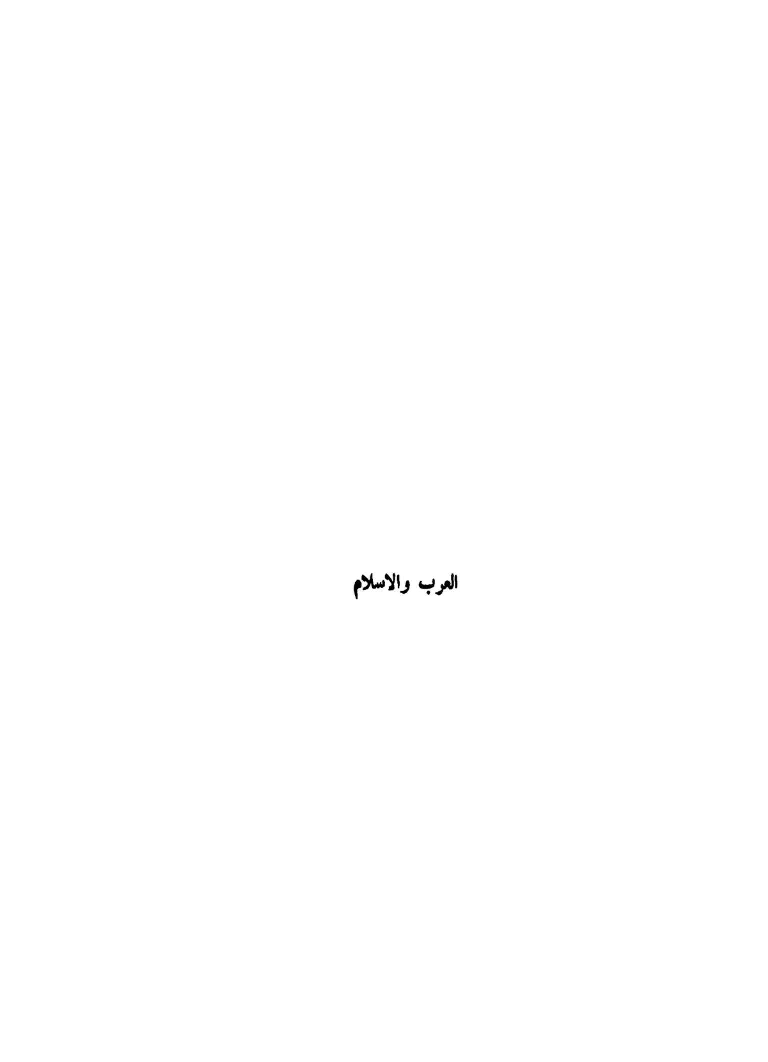
عمر فروخ

دكتور في الفلسفة
عضو مجمع اللغة العربية في القاهرة
عضو المجمع العلمي العربي في دمشق
عضو جمعية البحوث الاسلامية في بومباي

الطبعة الثانية

١٣٨٦ هـ = ١٩٦٦ م





العرب والاسلام



منذ الجاهلية الى سقوط الدولة الأموية

تأليف

عمر فروخ

دكتور في الفلسفة
عضو مجمع اللغة العربية في القاهرة
عضو المجمع العلمي العربي في دمشق
عضو جمعية البحوث الاسلامية في بومباي

الطبعة الثانية

١٣٨٦ هـ = ١٩٦٦ م

منشورات المكتب التجاري - بيروت

مطبعة دار الكتب - بيروت

الطبعة الثانية
٢ / ٣٠٠٠ / ١٠ / ٦٦٠

جمادى الثانية ١٣٨٦ هـ
تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٦٦ م

هذا الكتاب

إذا كانتِ الامةُ لا تزالُ على الفِطرةِ ، أو في طَوْرِ بَداوتِها ، كَثُرَ اهتمامُ العامّةِ من أهلِها بِروايةِ تاريخِها ؛ فيميلُ تاريخُها المَرْوِيُّ — الذي يَنْبَعُ من حاجاتِ العامّةِ ويوافِقُ هَواهُم — إلى أنْ يَكون قِصّةً .

فاذا ارْتَقَتِ الامّةُ كَثُرَ اهتمامُ المُثقّفِينَ من أبنائِها بالتاريخ ، فيُصْبِحُ حينئذٍ تاريخُها المَبنِيُّ على البحثِ في حياتِها هِيَ ، وعلى مُقارنةِ أحداثِها بأحداثِ الأُمَمِ المُحيطةِ بِها ، أقربَ الى أن يكونَ عِلماً .

فهرست الكتاب

الكلمة الاولى

هذا الكتاب

يُعنى هذا الكتاب بأسباب تاريخنا العربي وبنتائجه ، وبتعليل تلك الأسباب وتبيّن أثر تلك النتائج ما أمكن . من أجل ذلك لا بد من ذكر الأمور التالية :

١ ـ من المفروض أن يصل هذا الكتاب الى الأفراد الذين سبق لهم أن قرأوا قصة التاريخ وعرّفوا أحداثه المشهورة .

٢ ـ تقوم دراسة التاريخ ، في العادة ، على أحد الأسس التالية :

(آ) إما أن يتناول الدارس تاريخ الحقبة التي يأخذ نفسه بدراستها بالتفصيل ، وحينئذ لا يستطيع أن يدرس الا جزءاً يسيراً من تلك الحقبة ، ثم لا تـكون دراسته أكثر من الالمام بتفاصيلَ لا فائدةَ منها ، لأن تلك التفاصيل لا يمكن أن تُبرز الصورة الصحيحة لعصر من العصور ولا لقطرٍ من الأقطار . ثم ان

التاريخ ليس « ثبتاً » بالحوادث المفردة حتى يستفرغ المؤرخ جُهدَه في استقصاء الحوادث وفي تحشيتها بالتفاصيل.

(ب) وإما أن يتناول المؤرخ «كبار الحوادث مجرّدة». وهذا شيء لا فائدة منه أيضاً، لأن المؤرخ لن يستطيع أن يدرس حينئذ الا الحوادث المشهورة من تلك التي وجب أن يكون كل انسان مثقف قد مرّ بها في المدارس الثانوية أو في معارج الحياة. واذا جاءت الحوادث مجردة متقطعة لا يجمع بينها تعليل للاسباب ولا تنسيق للنتائج ولا تبيان لأثرها كلها في حاضر الأمة التي نؤرخ حياتها وفي مستقبلها لم يكن ذلك الذي يسرده المؤرخ تاريخاً.

(ج) على أن ثمت أساساً ثالثاً مفيداً، هو أن يتناول المؤرخ « أمهات الحوادث » التي تترك على وجه التاريخ أثراً ظاهراً وفي حياة الأمم أثراً باقياً، ثم لا يكتفي بسردها بل يعللها تعليلاً اجتماعياً يشمل نواحي الحياة المختلفة ما أمكن.

٣ — وتعليل التاريخ يحتاج إلى جرأة، ولكن الى جرأة مبنية على الاحاطة بالموضوع المدروس والى التجرد عن الاهواء عند البحث وعلى المقارنة بين الحوادث معَ بيان أسباب تلك الحوادث، ثم على تنتيج النتائج المقبولة في العادة وفي العقل. والذي يتعرض لتعليل التاريخ يجب أن يكون ملماً بعلوم كثيرة متصلة بالتاريخ من قرب ومن بعد كالجغرافية وعلم الاقتصاد وعلم النفس والرياضيات ووسواها، ذلك لأن التاريخ في الحقيقة صورة للحياة الاجتماعية وسجلّ لتطورها بما فيها من سياسة وحرب وفن وأدب وتنازع وتغلب.

٤ — على أننا لن ندرس تاريخنا درساً مطلقاً مجرداً، غايته ان نعرف الحقائق حباً بمعرفة تلك الحقائق وحدها. بل سنسعى الى ان يكون تاريخنا الماضي « عبرة » لنا في حاضرنا. ان لنا في درس التاريخ هدفاً علمياً: نرى حسنات الماضي وسيئاته ثم نحاول ان نتلافى في حاضرنا تلك الخطيئات التي ارتكبها اسلافنا في ماضيهم.

٥ — وحينما نأتي الى « تعليل تاريخنا » يجب علينا ألاّ نتبنّى التعليل الغربي،

بل يجب ان يكون لنا تعليل مبنيّ على اهدافنا ومُثُلِنا العليا وعلى واقع الحياة التي نحياها نحن. ونحن وان كنا لا نرفض المنطق ومنهج البحث والتفسير الموضوعي التي جاء بها الغربيون، فاننا لا نقبل كل ما جاء به الغربيون عند تعليل تاريخنا. ان نفراً من الغربيين درسوا تاريخنا دراسة دقيقة عميقة بعيدة عن الهوى، ولكن بعضهم الآخر تناول تاريخنا تناولاً سطحياً مَشوباً بالأهواء والمطامع. هذا مع العلم بأن تاريخنا نحن يجب أن يعلل على أسس مستمدّة من حياتنا نحن.

ان أكثر الغربيين قد درسوا التوراة بتفصيل وافٍ ودرسوا تاريخ النصرانية في أوروبة وتاريخ البابوية. من أجل ذلك كانوا اذا جاءوا الى تاريخنا عللوه على أساس دراساتهم تلك، مع أن ثمت فارقاً كبيراً بين الاسلام في حركته الاجتماعية السياسية وبين اليهودية والنصرانية في هذا المَنْحى. فدراساتهم الصحيحة في حقول اختصاصهم ليس من الضروري، اذن، أن تظل صحيحة في ميادين تاريخ العرب والاسلام.

٦ — وبعد، فنحن لن نهتم بالحوادث المفردة في تاريخ العرب قبل الاسلام او في تاريخ الاسلام، بل سنحاول ان نرى تاريخنا يتّسق في سلسلة متعانقة الحلقات متماسكة الاجزاء. وستكون دراسة اسباب الحوادث أعظم قيمة عندنا من دراسة الحوادث نفسها.

٧ — وكذلك سنحاول ان نَحُلّ عدداً من المشاكل المعلقة في تاريخنا. ومع ذلك فلن يضيرنا ان نخرج أحياناً بنتائج خرج بها غيرنا، اذ ليس من المهم ان نخرج بنتائج معينة، بل المهم ان نصل الى وضع مناهج للبحث ثابتة وان نكسب عقلنا تنظيماً.

٨ — ان العرب بلغوا في ماضيهم ذروة المجد السياسي والعلمي والأدبي، ثم هم اليوم متأخرون في ركب الحضارة من الناحيتين المادية والروحية. ولكن لن يكون همنا التبجّح بماضينا والندب لحاضرنا. ان همنا سيتجه الى درس ماضينا للاستفادة من عبره في مستقبلنا.

٩ ــ ومع أن العرب قبل الاسلام قد عاشوا في بيئة شبه مقفلة لصعوبة نفوذ غيرهم اليهم الا قليلاً ، فان العرب قبل الاسلام كانوا يتصلون بالعالم الخارجي اتصالاً وثيقاً واسعاً من طريق التجارة على الأقل . وبما أن حال العالم الخارجي كان عاملاً أساسياً في سهولة الفتح العربي وفي تقبل الامم المختلفة للاسلام تقبلاً شاملاً أو قاصراً ، فاننا عقدنا الفصل الذي سميناه « صورة القرن السادس » للميلاد .

١٠ ــ يلاحظ القارىء أنني قد تركت ذكر المراجع في الحواشي ، ثم في المتن الا قليلا . والسبب في ذلك هو خطة هذا الكتاب : ليست غايتي في هذا الكتاب جمع الحقائق واستيفاء التفاصيل والجدال في الروايات . انني تناولت في هذا الكتاب رؤوس الحوادث ، مما اشتهرت مظانه في مصادر تاريخ العرب والاسلام ، ثم حرصت على تبيان أسبابها ما استطعت وعلى تعليل تعاقبهـــا جهدي ، مع الاشارة أحياناً الى عواقبها .

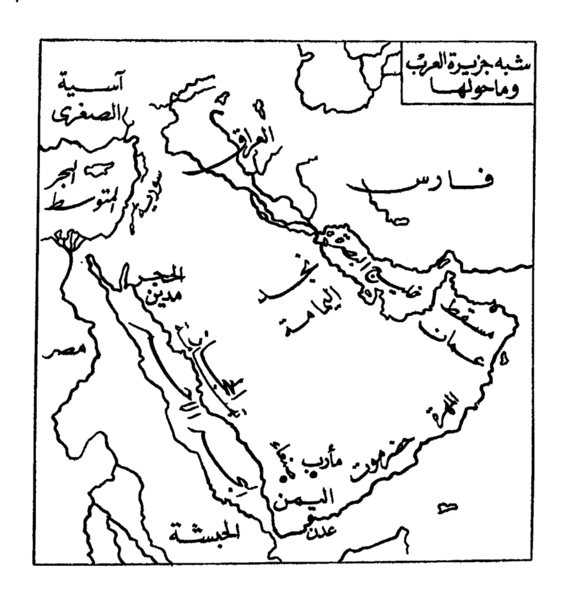
العَرَبُ قبْلَ الإسْلَام

شبه جزيرة العرب

شبه جزيرة العرب مُتَّسَعٌ من الأرض يبلغ نحو ثلاثة ملايين كيلو متر مربع ، فهي أحق بأن تدعى قارّة . ومن الباحثين من يجعل بلاد العرب « جزيرة » لا « شبه جزيرة » ، لأن نهري الفُرات والعاصي يعقِدان لها عند اقترابهما في أعالي الشام حداً شَمالياً من الماء . وهذا يدخل الشام كلها في جزيرة العرب ويزيد في مساحتها سَعة جديدة .

وسطح بلاد العرب شديد التفاوت ، فالقسم الأعظم منها « بادية » ، أي أرض تصلُح للزراعة ولكن لا ماء فيها . ويتخلل البوادي واحات ومرتفعات تُنبت الزرع والنخيل . ثم هنالك صحارى واسعة (أرض رملية لا تصلح للزراعة ولو وجد الماء) . هذه الصحاري تتسع في الشمال حيث تدعى النفود . وفي صحراء النفود عدد من الواحات اشهرها تَيْماء التي ذكرها امروُ القيس . وكذلك تتّسع هذه الصحارى اتساعاً اكبر في الجنوب حيث تدعى الدَهْناء (أي الفلاة الواسعة) وتدعى أيضاً الربع الخالي (بفتح الراء بمعنى المكان ، أو بضم الراء بمعنى الجزء من اربعة ، دلالة على اتساعها وعلى انها تتناول ربع شبه الجزيرة تقريباً) . وفي الدهناء تَقَعُ « الأحقاف » (أي الرمال المتصلة بالجبال) . ويطلق اسم الاحقاف على الجانب الجنوبي الغربي من الدهناء مما يلي اليمن وحضرمَوت . وقد كانت الاحقاف صالحة للسكنى في الجاهلية الاولى ، فقد جاء في سورة الاحقاف من القرآن الكريم : « واذكرْ أخا عاد اذ أنذر قومَه بالاحقاف وقد خلتِ النّذُرُ من بين يديه ومن خلفه .. (٤٦ : ٢١ راجع

ما بعدها) » . ثم هنالك مناطق جبلية وخصوصاً عند الشواطىء ، وعلى الشاطىء الجنوبي الغربي في اليمن على الاخص .



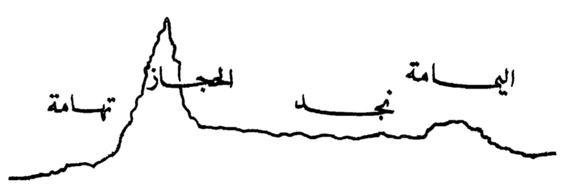
والسكنى في بلاد العرب تابعة لطبيعة اقسامها . فالصحاري غير مأهولة البتّة ، أما البادية فتسكنها قبائلُ تعيش على التنقل في طلب الماء والعشب . والبدو أو أهل البادية هم القسم الأوفر من « العرب » : عنهم أُخذت اللغة

العربية ، وفيهم خرج الشعراء قبل الاسلام ، ومنهم تألّفت جيوش الفتح في صدر الاسلام . وأما الحَضَر ، أي سكان القرى (المدن) المتفرقة في المناطق الجبلية الساحلية على الأخص ، ما بين شَمالِيّ الحجاز الى جَنوبي اليمن ، فهم أهل التجارة والصناعة ، وبالتالي أهل الحكم . ولذلك أمتد سلطانهم على أهل البادية .

شمالي بلاد العرب خاصة

لما ظهر الاسلام كان القسم الجنوبي من بلاد العرب قد خسر نفوذه السياسي والاقتصادي ، وكان القسم الأوفر من سكانه قد هجره الى الشمال (الى الشام والعراق والحجاز : الغساسنة فالمناذرة ثم الأوس والخزرج وقضاعة ، فيما قيل) . من أجل ذلك سنتناول في دراستنا هذه الجزء الشمالي من بلاد العرب : الحجاز ونجداً ، ذلك الجزءَ الذي أخذ ينهض نهضته العظيمة في القرن السادس للميلاد ، ثم بلغت نهضته الذروة بظهور الاسلام وبانتشار العرب بالفتوح في جميع العالم المعروف يومذاك .

ونحن اذا نظرنا الى سطح شمالي بلاد العرب ثم تخيلناه مقطوعاً قطعاً مستعرِضاً ظهر لنا كما يلي :



حينما نتجه من البحر الأحمر نحو الشرق نمر بتِهامة (الارض الواطئة) وهي منطقة ساحلية تمتد من الشمال الى الجنوب على البحر الأحمر . ثم نأتي الى الحجاز وهي منطقة جبلية سُمّيت الحجازَ لأنها تحجز (تفصل) بين تِهامة

ونجد . بعدئذ نصل الى نجد (الأرض المرتفعة) . ونجدٌ هضبة بعضها بادية وبعضها صحراء . ثم نصل إلى اليمامة على خليج البصرة . والملاحظ ان بعض الأرض ما بين البحر الأحمر وبين اليمامة أرض حرّة (أي بركانية) . ولذلك قيمتان اساسيتان عندنا :

(آ) المدنية التي كانت قد نشأت في هذه البقعة من الأرض قد زالت بالثورات البركانية التي كست الأرض بطبقة سوداء قاسية ثم منعت اتساع السكنى في تلك المنطقة .

(ب) ان الأمطار التي تسقط في تلك المنطقة تكون أحياناً غزيرة ، إلا أن هذه الأمطار قد تسقط على الأرض الحرة (في تهامة والحجاز) فتسيل في الأودية وتحدث فيضاناً ، ولكنها لا تنفذ الى باطن الأرض بل تصب كلها في البحر فلا يستفيد منها الحجاز وتهامة الا قليلاً . وقد تسقط هذه الأمطار في النفود (صحراء نجد) فتغور في الرمال فتكون الاستفادة منها أيضاً يسيرة جداً .

هذه الطبيعة في شمالي بلاد العرب جعلت الحياة حضرية في تهامة والحجاز ولكن قاسية جداً لأن الأرض ماحلة في معظم أجزائها . وعلى ذلك قول القرآن الكريم : «رب إني أنزلتُ من ذُريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرّم» .

أما في نجد فكانت الحياة بدوية ولكنها كانت كثيرة الشظف ، وخصوصاً في الشتاء . ولذلك كان الجاهليون يفتخرون بالكرم واطعام الطعام في فصل الشتاء ، لأنه زمن المَحْل .

حياة العرب الاجتماعية قبل الاسلام

النفوذ الأجنبي

كان الفرس والاحباش والروم يتنازعون السلطة على اليمن لأن اليمن كانت محطة تجارية عظيمة بين الهند وبين افريقية واوروبة خاصة . وكذلك كان الفرس يسيطرون على التخوم الشرقية لبلاد العرب ، حتى ان المراعي كانت تقسم

على يد كسرى[1]. أما التخوم الشمالية فكانت السيطرة عليها للروم : ولقد استطاع الروم ان يقيموا دولة الغساسنة في الشام ليقاوموا بها امتداد النفوذ الفارسي غرباً. كما ان الفرس أقاموا دولة المنادرة في العراق لصد التوسع الرومي شرقاً. ومع ان المناذرة والغساسنة كانوا عرباً مع عرب الجنوب ، فانهم كانوا يتنازعون فيما بينهم. ثم انهم كانوا جميعاً عيوناً على عرب الشمال في نجد والحجاز ليمنعوهم من التبسط في الأرض. وكذلك كان آل حُجر (أسرة امرىء القيس الشاعر الجاهلي المشهور ، ملوكاً على بني أسد في نجد ، وكانوا من أجل ذلك في نزاع مع المناذرة حكام العراق من قِبَلِ الفرس ، مع أنهم كانوا يجتمعون مع المناذرة في النسب اليماني وفي القرابة من طريق الزواج.

المدن التجارية

كان في الحجاز قرى (مدن) تقع على طريق التجارة بين اليمن ومصر ، أو بين اليمن والشام ، فكانت محطات تجاريةً هامة. وكان أشهر هذه القرى مكة والمدينة والطائف ومَدْيَن ودُومة الجندل. ولقد كانت كل مدينة تجارية « دولة » مستقلة على غرار المدن الفينيقية والمدن اليونانية القديمة. وكان يحكم هذه المدن عدد من أسرها الغنية الوجيهة تقتسم ما في تلك المدن من المنافع المادية. وكان سادة هذه المدن يحترفون « الربا » ، فوق ما كان لهم من احتكار التجارة ومن الوجاهة الاجتماعية.

وكان سكان المدن يقترضون المال من أهل المدن بربا فاحش لا يستطيعون وفاءه عادة ، فيقضون حياتهم مستعبَدين اقتصادياً لأهل المدن. ولقد ظل نفر من العرب يدفعون الربا على أموال اقترضوها في الجاهلية حتى ألغى الرسول ذلك الربا في السنة الحادية عَشْرَةَ للهجرة.

---

(١) راجع قصة حاجب بن زرارة.

الحياة القبلية

كانت كل قبيلة في البادية وحدةً قومية سياسية لا ترتبط بالارض (لأنها كانت تعيش على الرحلة في طلب الماء والعشب) بل تتصل عادة بالنسب، وكانت كل قبيلة يحكمها شيخها، وهو رجل كبير السن عادة، ولكنه قد يسود عشيرته صغير السن، اذا اجتمعت فيه الحكمة والغنى والعدل والوجاهة، كما اتفق لصخر بن عمرو الشريد، فقد قالت فيه اخته الخنساء لما رثته: «ساد عشيرته أمردا».

الجاهلية وأهلها

الجاهلية هي الزمن الذي مضى قبل الدعوة الاسلامية، وهي تقسم قسمين: الجاهليةَ الاولى وهي زمن متطاول ضاعت اخباره وبادت اكثر القبائل التي شهدته؛ ثم الجاهليةَ الثانية وهي الزمن الذي نعرف تاريخه بشيء من التفصيل والتأكيد. وتمتد الجاهلية الثانية نحو مائة وخمسين عاماً قبل الدعوة الاسلامية.

والجاهلية مشتقة من الجهل الذي هو ضد الحِلم لا من الجهل الذي هو ضد العلم. وهي تسمية اطلقها القرآن الكريم على هذا العصر الذي نعالجه.

لقد تمتع العرب في جاهليتهم بحضارة روحية لا تقِلّ عن حضارات الأمم التي كانت تحيط بهم في عصرهم. ولكنهم كانوا متأخرين كثيراً في حضارتهم المادية. أما المرآة التي يجب ان نتطلب فيها حضارة العرب في الجاهلية فهي اللغة العربية والشعر الجاهلي فانهما كانا يدلان على حياة بلغت الذروة في الرقي. وكذلك كانت هذه اللغة وذلك الشعر ينكشفان عن اتجاه فكري بارز كما نجد عند طرفة في نظره الى الاخلاق وعند زهير في النظر الى السلم والحرب. ولا ريب في ان القرآن الكريم مصدر صحيح لتاريخ العرب قبل والاسلام في اثناء الدعوة الاسلامية. أما حياة العرب الروحية (الدينية) في جاهليتهم فلم تكن أدنى من حياة الأمم التي جاورتهم كالروم والفرس. ولكن لما جاء الاسلام أصبحت حياتهم الروحية عظيمة الرقي بينما كان الدين عند الأمم التي جاورتهم

في دركات بالغة في الانحطاط . وهذا ما يفسر لنا سرعة تغلّب العرب على الامم المجاورة وسرعة انتشار الاسلام بين تلك الامم .

خصائص البدو

بما ان البدو كانوا الكثْرة الغالبة من عرب الشمال ، فاننا سنُجْمل خصائصهم العامة هنا . لقد استمد البَدْوي حسناته وسيئاته من بيئته ــ كما يتفق لكل أمة من الأمم ــ فمن خصائص البدو ما يلي :

حياته الاجتماعية .

(آ) القبيلة أساس الحياة الاجتماعية ، وهي اسرة كبيرة يَربط بعضَ أفرادها ببعض سبب من القرابة أو الزواج . وربما انتسب أحدهم الى قبيلة بالولاء أو الحلْف فأصبح كأنه من تلك القبيلة دماً ونسباً . وكذلك ربما خلعت القبيلة أحد أفرادها اذا خرج على بعض مبادئها أو خالف مُثُلَها العليا ، كما اتفق لطرَفة بن العبد لأنه كان سفيهاً (مسرفاً في ماله) مستهتَراً بالنساء والخمر . وكان هنالك أيضاً عبيد في القبيلة . والعبد يكون في أصله اسيراً أو مشترىً بالمال أو ابن أمَة (جارية مَلكت بالسبي او الشراء) .

(ب) الزواج ــ وكان البدوي يتزوج من النساء ما يشتهي من غير تحديد لعدد زوجاته ، وربما جمع أحدهم اربعمائة امرأة في عصمته . وكان الزواج اربعة انواع : زواج المَهر (المعترَف به اليوم في الاسلام) ، وزواج الشراء ، وزواج السبي ، وزواج المُتعة (الزواج الموقت) .

(ج) الدين ــ البَدْوي موحّد : لقد حملته سعة أرضه وفقدان معالم العمران فيها وتطوافه وحده على أن يرهب كائناً مجهولاً . من هنا نشأت عنده فكرة الالوهية . ولكنّ البدوي كان قليل الاحتفال بالعبادات وبالدين نفسه اذا كان آمناً على نفسه (كان يخاف الله في ساعات الضيق والفزع ، فاذا انكشفت غمته عاد الى الجحود) . والاوثان طارئة على بلاد العرب .

(د) الحياة الاقتصادية : الماء والكلأ مُشاعان في البادية للجميع ، ولكن ربما حمى البدوي عيناً صغيرة أو قطعة أرض منبتة . قال زهير : « ومن لم يذُدْ عن حوضه بسلاحه يهدم .. » ويعيش البدو على الغزو في الاكثر . والغزو ان يهاجم جماعة من البدو جماعة أخرى للاستيلاء على مواشيها غصباً . أما اذا استولى البدْوي على شيء واهله غائبون فذلك هو السَّرِقة .

(هـ) الحياة السياسية : شيخ القبيلة يحكمها بالشورى (باستشارة شيوخ القبيلة الآخرين : شيوخ العشائر والبطون والافخاذ) وذوي الرأي والوجاهة . وأمره في كل شيء غير مردود في قبيلته . أما اذا حدث خلاف بين قبيلتين فالفصل في هذا الخلاف يكون بالتحكيم . وربما رفضت أحدى القبيلتين الحكم ولجأت الى الحرب .

وللبدوي مُحامد كثارٌ منها الوفاء والكرم والنجدة والحِفاظ على العرض وعلى خير القبيلة ووَحدتها . وكذلك له مساوىء كثار أيضاً منها الثأر وشرب الخمر ولعب المَيْسر ووأد الاولاد والحميّة في غير الحق (العصبية الجاهلية) .

الحياة الفكرية قبل الإسلام

كان للعرب قبل الاسلام حياة فكرية نَعرِفها من الشعر الجاهلي في الاكثر ومن القصص الجاهلي احياناً ثم نجد مصداق ذلك وكثيراً من تفاصيله في القرآن الكريم . فمن أعظم مظاهر هذه الحياة الفكرية .

١ — اللغة : يغلب على الظن ان اللغة العربية هي اللغة السامية الأمّ لأنها أدق اللغات السامية نظاماً وأوسعها قاموساً وأشملها قواعدَ وارقاها أدبـاً . ورقي قواعدها وأدبها يجب أن يقوم دليلاً على قدمها ، لأن هذا الرقي يجب ان يكون نتيجة تطور تمّ في عصور متطاولة . ويبدو بوضوح ان اللغة العربية الفصحى كانت تعم بلاد العرب كلها . اما ما يسمى « لهجات عربية » فلم يكن يزيد على مفردات شائعة في بقعة دون أخرى . ولعل كثرة المترادفات

في اللغة العربية ترجع الى أن اللغة الفصحى قد تقبّلت فيما بعد ـ ومع ظهور الاسلام ـ مفردات من لهجات متعددة .

٢ ـ الأدب نثراً وشعراً : كان النثر الفصيح المُعْرَب لغة التخاطب في الجاهلية ، ولكنه لم يصبح أداة للتعبير الفني الا في زمن متأخر . والواضح ان العربي لم يحفل في أول الأمر بالنثر كثيراً ، بل اهتم بالشعر لأن الشعر كان اندر في القول وأوقع في النفس وأعلق بالذاكرة . ويبدو لنا ان النثر كان في الجاهلية ألصق بالحياة الرصينة العامة وبالمواقف الرهيبة كالكهانة والزواج والوصايا والتحكيم . أما الشعر فكان ألصق بالحياة الشخصية العارضة كالفخر والغزل والمناقضات . ويبدو لنا بوضوح ان الشاعر لم يصبح لسان قومه في المواقف المرهوبة الا في زمن متأخر .

ومما يَلفِتُ النظرَ ان كلمة شعر لم تكن قاصرة في الجاهلية على « الكلام الذي يجري على وزن واحد » كما تفهم اليوم ، بل كانت تطلق أيضاً على الكلام المتفاوت الاوزان ، اذا كان شديد التأثير في النفس . وعلى هذا يجب ان نفهم قول الجاهليين عن القرآن الكريم إنه شعر ، وعن الرسول انه شاعر .

٣ ـ العلوم : وقد عرف الجاهليون فروعاً من العلوم التي كانت معروفة في فارس وبابل واليونان ، كما كان قد نشأ عندهم شيء من العلم الفطري المبني على الملاحظة والتجربة والاختبار الطويل . من ذلك كله ملاحظات في الفلك والطب والتشريح (عند طرفة في وصف الناقة) والعرافة (التطلع الى المستقبل) والأثر (تتبع آثار الانسان او الحيوان الهارب) .

٤ ـ العقليات : ان الحياة العقلية لا تكون واحدة في الأمة ، ولذلك لا يستغرب ان نجد البدوي عادة موحداً ثم نجده أحياناً جاحداً . والبدوي لم يكن يؤمن بحياة بعد الموت بل اعتقد ان الحياة الدنيا فرصة للبشر حتى يتمتعوا بلذاتهم . أما الموت فيأتي على كل شيء « خبط عشواء » . على ان البدو من ناحية أخرى كانوا يعتقدون بالجن وبأن لله بنات يشفعن عنده للبشر . (ولعل هذا الاعتقاد كان طارئاً على العرب في زمن متأخر ايضاً) ، وبأن الانسان

اذا مات قتيلاً ولم يأخذ اولياؤه بثأره خرجت من جمجمته هامة (طائر) وجعلت تصيح : اسقوني ، حتى يؤخذ بدم ذلك القتيل .

وفي معلقة طرفة خاصة موقف واضح في الاخلاق . يعتقد طرفة ان الاخلاق قسمان : قسم شخصي كاتّباع اللذات وانفاق المال والتهور ، وهذه كلها خاصة بالشخص نفسه لا يجوز لأحد ان يعترضه فيها . ثم هنالك اخلاق اجتماعية كالنجدة والكرم والوفاء ، وهذه تتعلق بالمجموع وتفيده ، ولذلك كان المرء مجبراً عليها . وهكذا يرى طرفة ان الانسان قد يكون متصفاً بصفات شخصية ثم بصفات اجتماعية تناقضها (انه هو شخصياً مستهتر في لذاته ولكنّ عنده حفاظاً على اعراض قومه . انه ينفق امواله على الخمر ولكنه ايضاً ينفق في سبيل القبيلة) .

أما الحكمة (الآراء الصائبة في الحياة) فهي عند العرب اكثر من ان يحصرها العد .

صورة القرن السادس للميلاد
(القرن الاول قبل الهجرة)

الغاية من هذا الفصل

لما كنا ندرس تاريخ العرب والاسلام على أساس من التعليل الاسلامي ، وجب أن ندرس الدعوة الاسلامية كحركة اجتماعية الى جانب دراستها كحركة دينية . ولكننا لن نستطيع ان ندرك حقيقة الرسالة التي أداها الاسلام بين العرب ثم في الشرق ثم في العالم ، الا اذا درسنا حال العالم في القرن السادس للميلاد : ذلك القرن الذي سبق ظهور الاسلام .

هجرات البرابرة

شهد العالم منذ القرن الرابع للميلاد قبائل تتدفق من أواسط آسية وتنتشر في العالم المتمدن فتغير معالمه . هذه القبائل كانت تمثل هجرات متلاحقة لأقوام ضاقت بهم بلادهم فخرجوا يطلبون بلاداً جديدة يسكنون فيها . هـذه الهجرات تشبه الى حد كبير هجرات الساميين من شبه جزيرة العرب الى بلاد الهلال الخصيب وشمالي افريقية . الا أن هجرات الساميين كانت تحمل معها ثقافة راقية ثم توقظ البلاد التي تنزل فيها فتبعث فيها حضارات تبهر الابصار ، بينما هؤلاء البرابرة كانوا يغيرون على بلاد ذات مدنيات فيقضون على معالم المدنية فيها . وهجرات هؤلاء البرابرة تقع في دورين اثنين :

١ ــ هجرات البرابرة المعروفين بالجرمان ، كالقوط والسكسون والفاندال من الذين استقروا في انحاء اوروبة المختلفة ، ثم استطاعوا بعد ان قضوا على

كثير من معالم المدنية الاوروبية ، ان يؤسسوا ممالك جديدة وينشئوا حضارات جديدة .

٢ ـ هجرات البرابرة المعروفين باسم « الهون » (الهيطل ، الهياطلة) وهم أقل مدنية من الجرمان واكثر شجاعة ولكن أشد قسوة ووحشية . ولم تقتصر هجرات الهيطل على اوروبة بل تشعبت في آسية نفسها أيضاً .

وفي الوقت الذي كان الهون يزرعون الخوف في اوروبة ، ما بين جبال الأورال في فرنسة ، كان أقاربهم الهون البيض (الهيطل على الحصر) يقضون على الممالك في آسية ، فقد غزَوْا بخاري (٤٥٠ م) ثم مدوا غزوهم الى الهند فقضوا على امبراطورية غوبطا Gupta (نحو ٥٠٠ م) ، ثم هاجموا الساسانيين في فارس مراراً حتى مزقوا تلك البلاد وجعلوها نهباً للفوضى .

الهيطل في فارس

بعد أن قضى الهيطل على مملكة بخاري ، وقبل ان يقضوا على مملكة غوبطا في الهند ، انحدروا الى فارس فدافعهم كسرى ابرويز الاول (٤٥٧ ـ ٤٨٤ م) ولكنه خاب في قتالهم فقتلوه وأسروا اسرته وخربوا بلاده . وكذلك لم يستطع أخوه بالش (٤٨٤ ـ ٤٨٨ م) أن يصدهم فسملوا عينيه وخلعوه ثم وَلَّوْا مكانه قُبَاذ الاول (٤٨٨ ـ ٥٣١م) ابن ابرويز . ولكن الاحوال لم تستقر فخلع الفرس قباذ (٤٩٩ م) ، إلا أن الهيطل أعادوه الى عرشه .

في هذه الاثناء حدث حدثان بارزان : أوّلُهما ان الدولة الفارسية ضعفت بالهجمات الخارجية وبالمنازعات الداخلية فتوقف الفرس عن حرب الروم . وثاني الحدثين أن الشعب الفارسي الذي اقلقت الأحوال المضطربة اطمئنانه أخذ يتقبل النصرانية . ويبدو ان انتشار النصرانية في أول الأمر كان تسرباً لم يعلم به الاكاسرة ، ولكنه اتسع فيما بعد حتى لم يجد كسرى أبرويز ضيراً في أن تكون النصرانية ديناً معترفاً به في فارس . أما المذهب النصراني الذي انتشر في فارس فهو المذهب النسطوري الذي يقول بأن للمسيح طبيعتين :

طبيعةً الهية وطبيعة بشرية ، وعلى هذا لا تكون مريم والدة الله ، لأن الله لا يمكن ان يولد من انسان ، ولكنها والدة عيسى . هذه الثنوية في المسيح كانت توافق المانوية الفارسية التي تقول بأن في العالم آلهين : اهرمزدا الـه النور والخير ثم اهرمان اله الظلام والشر .

تجدد الحرب بين الساسانيين والروم

ويظهر ان هجمات الهيطل على فارس هدأت حيناً فعاد الساسانيون الى مهاجمة الروم فقد هاجمهم قباذ (٥٠٢ م) وانتزع منهم آمد (ديار بكر) كما حاربهم بعد ذلك عام ٥٢٧ و ٥٣١ م .

وتميز حكم قباذ بظاهرتين اجتماعيتين :

١ — بعد ان تقبل الروم النصرانية وانتشرت بينهم رأى الامبراطور يوستنيانوس الأول ان الفلسفة مناقضة للدين وانها في رأيه خطر عليه ، فأمر بأن تجمع كتب الفلسفة وتوضع في سراديب حتى لا تصل اليها يد الناس . ثم طرد جميع المشتغلين بالفلسفة من امبراطوريته (٥٢٩ م) . حينئذ استدعى قباذُ هؤلاء الفلاسفة والعلماء واكرمهم ثم فتح لهم مارستانا (مدرسة طبية ومستشفى) في جنديسابور . فكان ذلك سبباً من أسباب انتشار العلم والفلسفة في فارس وفي انتشار الطب على الأخص . ولعل قباذ لم يفعل ذلك حباً بالعلم بل نكاية بيوستنيانوس ، ولكنه على كل حال أثار في فارس حركة علميـة فكرية .

٢ — وفي أيام قباذ نبع مذهب مَزدَك ، أو المزدكية . والمزدكية حركة اجتماعية شعبية وُجدت لتقاوم المانوية (مذهب ماني) . كانت المانوية دين الدولة الحاكمة ودين النبلاء الذين كانوا يستغلون سواد الشعب ويضطهدونه ، فجاءت المزدكية وفيها عنصر شيوعي يقول بأن تقسم أموال الأغنياء بين الفقراء ، ثم تطرف فقال أيضاً بشيوع النساء . واعتنق قباذ الأول هذا المذهب في السنة الاولى لحكمه (عام ٤٨٨ م) .

كسرى أنو شروان ويوسعنيانوس

كان خسرو الاول ــ وهو كسرى انو شروان ــ ملك الفرس (٥٣١ ــ ٥٧٩ م) معاصراً ليوستنينانوس الاول امبراطور بيزنطية (٥٢٧ ــ ٥٦٥ م). ولقد استمرت الحرب بينهما برهة طويلة، من عام ٥٤٠ الى ٥٦٢ م، ولكن تخللتها فترات سلم.

وكذلك تحرك الهيطل (الهون البيض) من جديد عام ٥٦٠ م، فعقد كسرى انوشروان معهم حلفاً. الا أن هذا الحلف لم يَطُلْ أمده فعادت الحرب بين الفرس والهيطل ثم اتسعت.

ويظهر ان النصارى زاد عددهم في ذلك الحين في اليمن وزاد نشاطهم، فأخذ أقيال اليمن يضطهدونهم. وعلم يوستنيانوس بذلك فأوعز الى النجاشي (ملك الحبشة، وكان نصرانياً) ان يَغْزُوَ اليمن، فأرسل النجاشي اليها جيشاً بقيادة قائد اسمه أرياط فاستولى عليها عام ٥٧٠ م. ويبدو ان الاستيلاء على اليمن كان سهلاً، فأراد أرياط ان يمد نفوذه في بلاد العرب فأرسل حملة بقيادة قائد اسمه أبرهة على مكة في العام نفسه (٥٧٠ م). وكان في الجيش الحبشي فِيَلة لم تعرف من قبل في بلاد العرب، فسمى العرب هذا العام عام الفيل. ولكن حملة ابرهة على مكة لم تنجح لأن المرض انتشر في الجيش الحبشي فاضطر الى الارتداد. ثم ان احتلال الحبشة لليمن لم يطل، فان كسرى انوشروان الذي كان يَحرِص كأسلافه على ان يظل النفوذ البيزنطي بعيداً عن حدوده الغربية (في العراق) لم يرض أن يقترب ذلك النفوذ من حدوده الجنوبية (في اليمن). من أجل ذلك أرسل حملة أخرجت الحبشة من اليمن. ومنذ ذلك الحين أصبحت اليمن تحت نفوذ الفرس، ثم لم تتحرر منه الا لما جاء الفتح الاسلامي.

في هذا العام الذي نقصّ خبره هنا، عام الفيل (٥٧٠ م)، ولد رسول الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم. وكما أن عصر كسرى انوشروان تميز بالازدهار والعدل والأدب، فانه تميز ايضاً بانتصار المانوية

على المزدكية ، فقد أمر كسرى بنقل الافستا (كتاب المانوية المقدس) الى اللغة الفهلوية المحليّة ليقرأه الشعب ويفهمه ، ثم أعلن ان الارتد عن المانوية الى المزدكية او الى النصرانية عقابه الموت .

هرمز الرابع

وجاء بعد كسرى ابنه هرمز الرابع (٥٧٩ — ٥٩٠ م) وكان حاكماً مستضعَفاً فاضطربت احوال فارس في أيامه . ثم خالف سياسة أبيه في أمر الدين الفارسي ولم يشأ ان يُلْقِيَ سمعاً الى الكهنة المانويين ويضطهدَ النصارى ، بل أعلن أن المانويين والنصارى يستطيعون ان يعيشوا في مملكته جنباً الى جنب . حينئذ تآمر الكهنة والنبلاء عليه وقتلوه بمساعدة قائد اسمه بهرام .

كسرى الثاني وهرقل

وبعد هرمز الرابع جاء ابنه كسرى الثاني ابرويز (٥٩٠ — ٦٢٨ م) . ثم رقي هرقل عرش بيزنطية (٦١٠ م) في العام الذي بُعِثَ فيه محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

وأطلق كسرى الثاني جيوشه على الامبراطورية البيزنطية فبلغت جيوشه الى خلقدونية تجاه القسطنطينية ثلاث مرات (٦٠٨ ، ٦١٥ ، ٦٢٦ م) كما غزا الشام فاستولى على انطاكية (٦١١ م) وعلى دمشق (٦١٣ م) وعلى القدس (٦١٤ م) ، ثم احتل مصر عام ٦١٩ م . ولم يكن بامكان الروم ان يهاجموا فارس لأن الامبراطورية البيزنطية كانت في ذلك الحين في اعظم جزرها وفي منتهى ضعفها .

وجاء هرقل الى عرش بيزنطية والضعف مستحكم في الامبراطورية البيزنطية ، فبدأ بتنظيم الجيوش ولكنه لم يستطع ان يرد على هجمات الاكاسرة الا بعد ثلاث عشرة سنة (٦٢٣ م) فانتصر عليهم انتصارات كثيرة . ومع أن هرقل قد انتصر على فارس انتصارات حاسمة احياناً فان يديه كانتا مملوءتين بالمشاكل الداخلية وبالمشاكل الدينية على الأخص .

(١) المسيحية كما تظهر في الاناجيل دين شخصي يطلب من اتباعه ترك الأمور الدينوية ، لذلك لم يهتم الانجيل بالدولة ولا بالمجتمع ، حتى ان المسيح انتهر ذات يوم رجلاً لأنه سأل عن قسمة إرث أبيه بينه وبين أخٍ له . وفي الانجيل « ليست مملكتي من هذا العالم » .

(٢) ولما كتب القديس بولس رسائله أراد ان يقرب النصرانية من عقول اليونانيين ، ولقد توسع بولس في ناحية العقيدة ولكنه ظل بعيداً عن الاهتمام بالسياسة . وبولس لم ير المسيح قط .

(٣) الكنيسة هي التي وضعت أسس التنظيم الاجتماعي والدولة المسيحية (البابوية) فيما بعد . وفي القرن السادس كانت النصرانية لا تزال قليلة الانتشار في اوروبة . أما في الشرق ، وخصوصاً في آسية الصغرى والشام ، وفي الاسكندرية في مصر ، وفي بعض مدن العراق فكانت اكثر انتشاراً . ولكن الفرق المسيحية كانت كثيره جداً في هذه البلاد وكان الاختلاف بينها يتناول العقيدة رأساً ، من ذلك :

(آ) المسيح اله — المسيح ، رجل صدّيق (بتشديد الدال) ، فاضل .

(ب) المسيح صلب — لم يصلب .

(ج) مريم والدة الله — مريم والدة عيسى (المسيح ، الانسان) .

(د) الله واحد (ثلاثة اقانيم في أقنوم واحد) — الله ثلاثة (ثلاثة أقانيم مستقلة) .

(هـ) لا يجوز ان نجعل صورة للمسيح وأمه الخ — يجب ان نجعل صورة للمسيح ... ويبدو أن الفرق النصرانية الثلاث التي ظلت واسعة الانتشار حتى ظهور الاسلام كانت ثلاثاً :

الاولى — مذهب أريوس : ويرى بأن المسيح ليس آلهاً ، بل هو انسان مخلوق من لا شيء ، وباقي البشر اخوته (وقد انتشر هذا المذهب بين القوط في اسبانية أيضاً) .

الثانية — المذهب النسطوري (مذهب الكنيسة السورية الشرقية) ، وهو

يقول : ان في المسيح طبيعتين مستقلتين ، أحداهما الهية (يعمل بها الأمور الالهية) والثانية بشرية (يسلك بها في الدنيا كما يسلك سائر البشر) . وعلى هذا لا تكون مريم والدة المسيح الذي هو ذو الطبيعة الالهية « الله » ، بل والدة المسيح الذي هو دو الطبيعة البشرية (عيسى ، الانسان) .

الثالثة — المذهب اليعقوبي (مذهب الكنيسة السورية الغربية) ويقول اصحابها بأن في المسيح طبيعةً واحدة ، وان المسيح هو الله .

وانتشر المذهبان النسطوري واليعقوبي حتى عمّا الامبراطورية البيزنطية ، ثم نشأت الخلافات فيهما والاضطرابات في كل مكان . حينئذ خطر للامبراطور هرقل ان يوحّد المذهب النسطوري والمذهب اليعقوبي بأن يقول : كان في المسيح (في الاصل) طبيعتان مختلفتان (أي كما يقول النساطرة) ولكنّ هاتين الطبيعتين عادتا فاتحدتا وأصبحتا طبيعة واحدة (يريد ان يتقرب بذلك من اليعاقبة) . ولكن النتيجة كانت نشوء مذهب جديـــد هو المذهب الملكي (الروم الكاثوليك) او الملكاني (مذهب الملك) .

غير أن الاختلاف الديني لم يكن كل ما أصاب بيزنطية من الخصام والشقاق والضعف ، بل هنالك النزاع السياسي ، وهو ان الطبقة الحاكمة كانت من بلاد اليونان في اوروبة ، بينما الجنود كانوا من آسية الصغرى . وهكذا ثار النزاع بين طبقة الحـــكام وطبقة المحكومين ، وبين الجيش والاباطرة ، ثم كان هنالك الفساد الخلقي الذي كان مستطيلاً في بيزنطية من التهالك على الرذيلة والانغماس في القمار (وسباق الخيل على الأخص) . وكان الدين مسيطراً على العقل البيزنطي في كل شيء سيطرة تامة : في تنصيب الامبرطور وفي الحروب وفي الطب وفي الصلات الشخصية . ولكن تلك السيطرة كانت في حقيقتها تنازعاً وتفككاً .

ثم اذا نحن التفتنا الى فارس في أعقاب القرن السادس الميلادي ومطلع القرن السابع وجـــدنا ان كسرى الثاني كان ، برُغْـــم من كل ما دهى امبراطوريته ، منصرفاً الى اللهو بخيلاً . من أجل ذلك ثار عليه قومه ثمّ

وثب عليه ابنه قباذ الثاني فعزله وذبحه (عام ٦٢٨ م). ولكن كسرى الثاني لم يمت حالاً بل عاش بعد ذلك بضعة أشهر كانت فارس في أثنائها ميداناً للفوضى. وتوثب على العرش مغتصبون كثار منهم القائد بهرام، ومنهم بوران (٦٣٠ — ٦٣١ م) بنت كسرى الثاني، كما استبد كثيرون أيضاً بالمقاطعات المختلفة.

واخيراً اتفق الفرس على تمليك يزدجرد الثالث.

* * *

أثر العصر في الامبراطوريتين (وصلة ذلك الأثر بالفتوح العربية):

هذه الحروب الطوال بين الامبراطوريتين الساسانية والبيزنطية، بما اضيف اليها من الاضطرابات الداخلية، أدت الى:

(آ) ضعف الامبراطوريتين ضعفاً شديداً.

(ب) سأم الشعبين من الاستمرار في هذا النزاع الذي لا نهاية له ولا جدوى فيه..

(ج) فساد الأحوال الاجتماعية: الاستبداد السياسي والاضطهاد الديني والقهر الاجتماعي وابتزاز الأموال بالضرائب والمصادرة.

(د) زعزعة عقيدة الشعبين في مُثُلهما العليا. ان الهزائم المتوالية والاضطهاد المتواصل قد افقدت الشعبين معنى الكرامة القومية، فأخذا يتطلعان الى مبادىء أقدر على إدخال الاطمئنان الروحي على النفس وأضمن للتقدم المادي في البلاد.

ونقف في تاريخ الامبراطوريتين الفارسية والبيزنطية عند العام ٦٣١ م لأن العرب كانوا قد أخذوا، في ذلك العام، يطرقون أبواب الامبراطوريتين معاً.

الجرمان وروميه

بعد موت ثيودوسيوس (٣٩٥ م) انقسمت الامبراطورية الرومانية نهائياً وعملياً قسمين: الامبراطورية الشرقية (البيزنطية) وعاصمتها

القسطنطينية (وقد ألقينا نظرة على احوالها العامة في القرن السادس)، ثم الامبراطورية الغربية وعاصمتها رومية.

كان البرابرة الجرمان منذ مطلع القرن الرابع للميلاد يهاجمون الامبراطورية الرومانية كلها في الشرق والغرب، ولكن يبدو ان القسطنطينية كانت أمنع من رومية وان عوامل الانحلال في رومية وما حولها كانت أشد منها في القسطنطينية. ويلفت النظر ان البرابرة الجرمان كانوا قد أقاموا دولاً لهم في غربي اوروبة (في فرنسة واسبانية) وفي شمالي افريقية ايضاً.

الا أن الامبراطورية الرومانية الغربية كانت لا تزال قائمة، ولكن كان يتنازعها أباطرة ضعاف. وبلغ اختلال الاحوال في رومية وما حولها الغاية. ويمكن تلخيص أوجه هذا الاختلال واسبابه في ما يلي:

(آ) اضطراب الادارة – ان هجمات البرابرة المتوالية واشتغال رومية بها في المقام الاول صرفها عن الاهتمام بالطرق التي كانت تربط المقاطعات المختلفة، فخربت تلك الطرق وتهدمت اكثر الجسور فتقطعت أوصال الامبراطورية بين العاصمة وبين المقاطعات، وفقدت العاصمة سلطتها على تلك المقاطعات. وزاد في اختلال المواصلات فساد نظام البريد، اذ كان الموظفون القائمون على البريد يستغلونه لمصالحهم الشخصية فيسرقون علف الخيول أو ينقلون عليها بضائع لتجارتهم الخاصة او يهملون واجباتهم في نقل الاخبار الصحيحة ونقل أوامر الدولة بين العاصمة والمقاطعات.

(ب) اضطراب الأمن – ان اضطراب الإدارة بعد خراب الطرق قد أدى الى اضطراب الأمن، فكثر قطاع الطرق واللصوص في كل مكان (في البر والبحر). حينئذ اضطرت الدولة الى تعيين موظفين ريفيين في بعض المقاطعات لا عمل لهم الا القبض على اللصوص. وفي أواسط القرن الرابع فُقد الأمن تماماً في الريف الايطالي وأصبح من المألوف ان يُسلب المسافرون على الطرق المؤدية الى رومية نفسها، أو على أبواب رومية أيضاً. وهكذا سمحت الدولة في عام ٣٩١م للمدنيين بأن يحملوا سلاحاً للدفاع

عن أنفسهم .

(ج) زادت الدولة الموظفين ظناً منها ان ذلك يسهل تسيير الأعمال ، ولكنها في الحقيقة جعلت عدد الموظفين الفاسدين اكبر . ثم ان زيادة عدد الموظفين تدعو الى ازدياد الحاجة الى المال ، وهذه تدعو الى زيادة الضرائب والى ارهاق الشعب فوق ارهاقه الاول . اضف الى ذلك ان هؤلاء الموظفين كانوا يهتمون في الدرجة الاولى بمصالحهم ثم لا يخدمون أحداً من الناس الا اذا رشاهم . وبعد قليل اصبح الموظفون في الحقيقة « طبقة » تستغل مركزها لتصبح غنية بما تسرقه من أموال الدولة أو تبتزه من أموال الشعب .

(د) أصبح الجند « طبقة » مستقلة تفعل فعل طبقة الموظفين .

(هـ) وعمد كبار المتنفذين من الصناع والزراع والتجار الى حصر مرافق البلاد في ايديهم — مستعينين بالموظفين — فاحتكروا الصناعة والتجارة ، فأصبح في البلاد بضعة ملاكين مثلاً يملكون معظم الأراضي الزراعية ، وخرج الزراع الصغار من اراضيهم أو ظلوا فيها فلاحين مضطهدين . وكذلك كان الشأن في الصناعة والتجارة . وهكذا كثر الفقر بين السكان .

(و) تناقص عدد السكان : ان غزوات البرابرة والقلاقل الداخلية والفقر والطواعين التي انتابت رومية وما حولها في ذلك الحين ، كل ذلك عمل على تناقص عدد السكان تناقصاً سريعاً . ثم ان معظم الأسر الكبيرة والصغيرة لم تكن ترغب في الاكثار من الاولاد لاختلال الأحوال الاقتصادية في البلاد .

(ز) وخافت الدولة مغبّة نقص السكان فسمحت للبرابرة بالاستقرار داخل تخوم الامبراطورية (في الاماكن المهجورة) . ولا ريب في أن ذلك جعل عـــدد ولكن يزيـــد السكان في الاتجـــاه الخاطىء . ان البرابرة كانوا « أعداء » للرومانيين وكانت لهم لغتهم الخاصة وحضارتهم الخاصة وعصبيتهم الخاصة واطماعهم الخاصة . وهكذا تكون الدولة الرومانية قد حلت مشكلة عارضة بخلق مشكلة أصيلة (لقد جعلت في قلب الامبراطورية

حضارتين متعاديتين) .

ولقد كان لذلك نتائجُ سيئة على الامبراطورية الرومانية ، منها ان هؤلاء الجرمان بدأوا يستولون على مناصب الدولة ومراتب الجيش فانتقلت السلطة الحقيقية في الامبراطورية الرومانية الى ايد أجنبية . ولما ساد الجرمان في الدولة جعل الشعب يقلدهم في كل شيء (والناس على دين ملوكهم) . فما أن انتصف القرن الخامس للميلاد حتى كان الرومان يقلدون الجرمان في لباسهم وازيائهم وفي حياتهم المنزلية أيضاً ، وبدأ الشعب الروماني يفقد طابعه الشخصي وقِوام كيانه .

(ح) ولما قل السكان الرومانيون في المدن والقرى قلت الايدي العاملة في المزارع والاسواق . وأخذ الفلاحون خاصة يهجرون القرى ويأتون إلى المدن لأنها أوسع مجالاً للكسب . حينئذ أصدرت الحكومة قانوناً يمنع الفلاحين من مغادرة أراضيهم ويوجب عليهم البقاء فيها يستغلونها لأنفسهم أو لاصحاب الاملاك الكبرى . ومع ان هذا « التدبير » حكيم في ظاهره فانه خلق مشكلة جديدة : لقد أوجد طبقة من « الاقنان » الذين اصبحوا مربوطين بالأرض من غير ان يحمل أصحاب الأراضي على حسن معاملتهم . وعلى هذا أيضاً قلّ صنع الأدوات المختلفة وكسل الناس عن استيراد الحاجات من الخارج .

(ط) واحتاجت الحكومة الى اشياءَ كثارٍ لموظفيها وجيشها فأخذت تستولي على ما بأيدي الناس غصباً ، فارتفعت أسعار الحاجيات والضروريات ارتفاعاً فاحشاً وخاف الناس على أموالهم خاصة فادّخروها في الصناديق وكتموها عن الدولة . ولما قلت العملة المتداولة في الأسواق عاد الناس الى المقايضة ، حتى ان الأطباء والاساتذة والجنود وجباة الضرائب كانوا يأخذون على حقوقهم وخدماتهم بضائع وحاجات بدل الدراهم .

(ي) واضطرت الدولة الى الحصول على المال فأخذت تخفض سعر العملة (بأن تسكها ممزوجة بمقدار كبير من النحاس أو الرصاص) . وهكذا

ظل اسم الدينار ديناراً ، ولكن قوته الشرائية انخفضت كثيراً .

(ك) وزادت الحالة الاقتصادية في رومية سوءاً حين أخذت القسطنطينية تزدهر وتستولي على طرق التجارة الخارجية شيئاً فشيئاً .

(ل) ولما أخذ الفلاحون يهربون من مزارع أسيادهم كانت الدولة ترد الهارب الى سيده مقيداً بالسلاسل . وسرعان ما طبق هذا القانون على الأجُراء في الصناعة والتجارة . ثم فرضت الدولة على كل انسان ان يستمر في صناعة أبيه . وهكذا نشأت الطبقات الاقتصادية فأصبح هنالك طبقة حدادين وطبقة نجارين وطبقة حمالين ، وأصبحت كل صناعة وراثية قاصرة على أهلها . حتى الممثلون والمصارعون والعزّافون والسواقون أصبحوا طبقات تتوارث أعمالها .

(م) هذه الأحوال كلها قادت الى ازدياد قوة أصحاب المزارع الكبرى والمصانع الكبرى والمتاجر الكبرى . حينئذ أخذ هؤلاء يتملصون من دفع الضرائب أما برشوة الموظفين أو بالحصول على اعفاءات رسمية أو بالامتناع عن دفعها بما لهم من سلطة وقوة . ولما وصل هؤلاء من القوة الى هذا المركز أخذ أكثرهم ينشىء المزارع الواسعة ويشحنها بالاجراء والعبيد ويعيش فيها آمراً ناهياً كأنه في أمارة مستقلة عن كل سلطة سياسية أخرى .

سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية

كانت القبائل الجرمانية التي تحيط برومية تشهد كل هذا الضعف في السلطة المركزية ، فأخذ الزعماء منها يتدخلون في تنصيب الأباطرة وخلعهم . وأخيراً أدرك أولئك الجرمان البرابرة أنهم هم الحاكمون فعلاً ، وان الامبراطور الروماني لا سلطة له ولا قدرة ، فلماذا لا يتحكمون هم فعلاً مكانه ويكون لهم في ايطالية مملكة كما لاخوانهم الفرنجة والقوط الغربيين والفندال ممالك في فرنسة واسبانية وشمالي افريقية ؟

وأخيراً اتجهت تلك القبائل نحو رومية ففتحتها وخلعت الامبراطور رومولوس اغسطولوس عن عرشه ونصبت مكانه زعيمها آدوفاكر (أو

ادواكرو أو ادوسر) ملكاً على ايطالية عام ٤٧٦ م[١] . وهكذا زالت الامبراطورية الرومانية الغربية وأصبحت تابعة اسماً على الأقل للامبراطورية البيزنطية . ولكنها في الحقيقة كانت قد تجزأت اقساماً مختلفة الاحجام لتنشأ فيها ممالك جرمانية مختلفة .

زوال الحضارة اليونانية الرومانية

قويت الآن القبائل الجرمانية في اوروبة ، وهي شعوب فطرية تتصف بالشجاعة ولكن لا تتذوق من احوال العيش الا الطعام والشراب والقتال . أما الرومانيون فقد قل عددهم وضعفوا فبدأت الحضارة القديمة (اليونانية الرومانية) تتقهقر ثم تزول شيئاً فشيئاً . وهكذا أهملت الابنية التاريخية والمكتبات والآثار الفنية او أتلفت من غير ان يهتم أحد باصلاح ما تلف او بالمحافظة على ما بقي .

ثم فُقد العلم اليوناني جملة واحدة ، وتأخرت اللغة اللاتينية ، وقل الذين يعرفون القراءة والكتابة حتى لم يبق في رومية كاتب يستطيع ان يدون تقلبات ذلك العصر . وبكلمة واحدة : لقد انقلب العالم الغربي في مطلع العصور الوسطى الى حال شبيهة بالحال التي كان فيها قبل ان يفتحه الرومان ويمدنوه .

* * *

في هذا العصر المضطرب المملوء بالقلق الاجتماعي والروحي ، والغارق في الفوضى والفساد والجهل والخاضع للعصبيات والموزَّع بين الشيع الدينية المتنابذة المتخاصمة والمصاب بنقص في الأموال والانفس والثمرات ، ظهر الاسلام في أمة فتية مقبلة على الحياة قد جمعت صفوفها ووحّدت ايمانها وتطلعت الى المستقبل لتخرج هي من الجاهلية الى الحضارة ، ولتُخرج غيرَها من الظلمات الى النور .

---

(١) يعتبر هذا التاريخ حداً بين العصور القديمة والعصور الوسطى .

الدّعْوَة الاسْلَامِيَّة

قريش

كانت قريش أقوى القبائل المتحضرة في الشمال الغربي من شبه جزيرة العرب وأغناها ، وكانت مسيطرة على التجارة الخارجية تنقلها بين اليمن وبين مصر والشام والعراق الى فارس . وكذلك كانت تحتكر التجارة الداخلية والاقراض بالربا والاشراف على سُقيا الماء وإطعام الطعام في المواسم . وكان لها سِدانة الكعبة . كل هذا جعلها ذات نفوذ كبير على أهل القرى وأهل البادية في الحجاز وما حوله . ويبدو ان بلاد العرب أصيبت قبيل مبعث الرسول بقحط شديد ضعف بعده مركز قريش التجاري ، ولكن قريشاً ظلت غنية بالاضافة الى سائر العرب حولها . على ان افتقار بني قريش نسبياً لم يذهب بوجاهتهم . فما ان ركدت تجارتهم قليلاً حتى هبوا الى توسيعها ، فاتصل هاشم بملوك الشام الغساسنة وبرجال الروم هناك . واتصل عبد شمس بالنجاشي فامتدت تجارتهم إلى الحبشة . واتصل نوفل بالاكاسرة ملوك فارس فاتسعت تجارتهم في العراق وفارس ، واتصل المُطّلب بن عبد مناف بملوك اليمن . وهكذا عاد امر قريش الى الرخاء : « لإيلافِ قريش إيلافهم رحلةَ الشتاء والصيف . فليعبُدوا ربَّ هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » .

عبد شمس وهاشم

كان لعبد مناف بنون اكبرهم عبد شمس ثم هاشم ، وكان المُطّلب أصغرهم . ويبدو أن المنافسة كانت بين عبد شمس وهاشم على أشدها :

يريد كل واحد منهما ان يجعل التجارة والوجاهة في بنيه. واستطاع عبد شمس ان يستبد بالتجارة فاكتفى هاشم بالرِفادة والسقاية. ومنذ ذلك الحين صارت التجارة ثم الحرب في بني عبد شمس (وهما من أُمور للدنيا) وصارت الرفادة والسقاية في آل هاشم (وهما من أمور الدين). وهكذا انقسمت الاسرة الواحدة في الحياة فرْقين: فرْقاً يتكسبون بالحرب والتجارة، وفرقاً يتكسبون بالرفادة والسقاية، وكان آل هاشم من أجل ذلك أقل ثروة من بني عبد شمس.

مولد محمد رسول الله

ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم في عام الفيل، (٥٧٠ م). ويُعَدّ عام الفيل حدثاً هاماً في تاريخ بلاد العرب:

في القرن السادس للميلاد كثر المهاجرون النصارى واليهود في اليمن. ويبدو ان نزاعاً مادياً وتجارياً نشأ بين هؤلاء وبين أهل اليمن فعمد ملوك حِمْيَر الى اضطهاد النصارى. حينئذ أوعز يوستنيانوس ملك الروم إلى النجاشي (ملك الحبشة) بأن يغزوَ اليمن. فغزا الاحباش بلاد اليمن واستولَوا على مرافقها التجارية، اذ كانت اليمن طريق التجارة بين الهند والبحر المتوسط. ويبدو ان الاحباش استطالوا في بلاد العرب ولم يكتفوا بالاستيلاء على بلاد اليمن فعزموا على الاستيلاء على الحجاز ايضاً. فاتجه جيش حبشي من اليمن تحت قيادة رجل يقال له ابرهة نحو مكة استطاع ان يفجأ المكيين، بعد ان دله رجل مكي اسمه ابو رِغال على طريق سهل لا يسترعي المرور فيه أنظار المكيين.

ولما رأى المكيون جيش أبرهة الكثيف بمعداته وبما فيه من الفيلة التي لم يكونوا قد رأوها من قبل أُسقط في ايديهم ولم يملك عبد المطلب بن هاشم سيد مكة يومذاك الا أن يقول: «ان للبيت (للكعبة) رباً يحميه». ويظهر ان أمرين قد حدثا فردّا الأحباش عن مكة: أولهما أن مرضاً فشا في جيشهم بسبب معجز: «ألم ترَ كيف فعل ربك بأصحاب الفيل؟ ألم يجعلْ كيدهم

في تضليل ؟ وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سِجِّيل ، فجعلهم كعَصْف مأكول » .

وأما ثاني الحدثين فان الفرس خافوا من امتداد النفوذ الحبشي ، والنفوذ الرومي من ورائه ، في بلاد العرب فأرسلوا جيشاً أخرج الأحباش من اليمن . وتبدلت اليمن بالفاتح الحبشي فاتحاً فارسياً . ثم ظلت اليمن تحت سيطرة الفرس حتّى فتحها المسلمون .

ولما أرتد الأحباش عن مكة أخذ المكيون أبا رغال فقتلوه ثم ألقَوْه في وادٍ عند مكة وجعلوا يرجمون قبره كلما مروا به . ولم يستطع المكيون ان ينسُوا منظر الفيلة طالعة على مكة ، فسموا ذلك العام عام الفيل .

نشأة محمد رسول الله :

ولد محمد بعد موت أبيه عبد الله ، فكَفَله جَدّه عبد المطلب . ولكن بعد ثمان سنوات توفي جده عبد المطلب فكفله عمه ابو طالب . كان ابو طالب أقلّ أخوته مالاً وأكثرهم عَيْلةً . وعاش محمد في بيت ابي طالب عيشة كَفاف ، ولكن في رعاية وحنان بالغين . وكان ابو طالب ربما ارسل محمداً مع ابنائه لرعي غنمه ، وربما أخذه معه الى الشام ليعوّده التجارةَ . الا ان محمداً كان منصرفاً عن كل عمل دنيوي كما يبدو من سلوكه ، وكان كثير التفكير والعزلة .

ولما بلغ محمد الخامسة والعشرين من عمره كان ابو طالب قد ساءت حاله المادية كثيراً ، ولم يكن لمحمد عمل يعيش منه . فاتصل ابو طالب بخديجة بنت خويلد ، وهي من تجار مكة المعروفين ، واستطاع بما له من وجاهة ان يجعلها تقبل محمداً في عداد الذين يذهبون بتجارتها الى الشام — وان كان موسم التجارة في ذلك الحين قد انقضى . وهكذا غادر محمد بيت ابي طالب ، ولكن صلة العم بابن أخيه ظلت وثيقة جداً .

ولَفَتَ محمد بأمانته نظرَ خديجة . ثم بدت لخديجة مزايا عظيمة في محمد فتزوجته . وهكذا رُفع عن عاتق محمد الكدح في سبيل العيش وأصبح

موسراً. ولكنّ محمداً عاد – بعد ان أصبح مال خديجة مالَه هو – فانصرف عن الكسب الى استئناف التفكير والعزلة في غار حِراء في رمضان من كل عام تحنّفاً وتعبداً، على ما كان قد ألِفه ذوو الاتجاه الروحي من قريش. وقد عاد محمد وخديجة فقيرين، ولكن فقر محمد لم يغطّ على مزاياه السامية.

ولقد أجمعت المصادر على ان القبائل لما أرادت أن تجدد بناء الكعبة عام ٦٠٥ م حكّمت محمداً في الخلاف الذي نشِب بينها حينما جاءت إلى حمل الحجر الأسود الى مكانه من ركن الكعبة. وحل محمد هذا الخلاف بأن أمر بأن يوضع الحجر في رداء – في ردائه هو – وان تمسك كل قبيلة بطرف من أطراف الرداء ثم تقترب به من الركن. بعدئذ تناول محمد نفسه الحجرَ الأسود بيده ورده إلى مكانه الأول. ان هذا التحكيم يدل على أمرين: على وجاهة محمد وأسرته في قريش وعلى مزايا محمد الشخصية التي كانت موضع احترام كبير.

النبوة :

صدع محمد رسول الله بالرسالة في شهر رمضان (سنة ١٣ قبل الهجرة = ٦١٠ م) وعمره اربعون سنة. ولقد اختلف الرواة في أول من استجاب لدعوته، ولكن الاجماع واقع على ان ثمّت بضعة نفر كانوا أول المؤمنين برسول الله. هؤلاء النفر هم: زوجته خديجة، وصديقه ابو بكر عبد الله ابن ابي قُحافة، وابن عمه علي بن أبي طالب، ومولاه زيد بن حارثة، وعبد بمكة اسمه بلال. ثم كان هنالك طبقة ثانية من المؤمنين فيها ابو ذر الغِفاري، وعثمان بن عفان، والزبير بن العوّام، وعبد الرحمن بن عَوف، وسعد بن أبي وقّاص، وطلحة بن عبيد الله. ثم فشا ذكر الاسلام بمكة.

والذي نلاحظه ان الذين دخلوا في الاسلام في أول الأمر لم يكونوا كلهم من المستضعَفين، بل كان فيهم بعض ذوي القوة والغنى والوجاهة في قريش.

الاضطهاد – الهجرة الاولى الى الحبشة :

جاء الاسلام بالتوحيد وبالمساواة بين النـاس وبترك استغلال الدين وبتحريم الربا وباعتاق الارقاء ، فكأنه جاء بكل ما يناقض مصالح اصحاب الزعامة الدينية الوثنية ومصالح التجار من المكيين . ولذلك لم يقاوم المكيون الاسلام في الدرجة الأولى على انه دين ، بل قاوموه على انه نظام إجتماعي يريد ان يسلبهم امتيازات كانوا يتمتعون بها .

ولم يستطع المكيون ان يقاوموا محمداً لمكان محمد من قريش عامة ومن اسرته خاصة . لذلك حاولوا في أول الأمر ان يثنوه بالحسنى عن متـابعة الدعوة ، فجاءوا الى ابي طالب مرتين يطلبون منه ان يمنع ابن أخيه عن « تسفيه رأي قريش في الأوثان » ، أو يُلحقوا بمحمد أذى . فعزّ على أبي طالب ان يلحق بابن أخيه أذى كما عز عليه ألا يسمع لشكوى المكيين . من أجل ذلك خاطب ابو طالب محمداً بقوله : « يا ابن أخي ، إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا . فأبق عليّ وعلى نفسك ولا تحمّلني ما لا أطيق » . فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قد بدا لعمه رأي جديد فيه ، وانه سيخذله ويُسْلِمَه لأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عماه ، لو وضعوا الشمس على يميني والقمر على يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهْلِكَ فيه ما تركته .. حينئذ قال له ابو طالب : يا ابن أخي ، إذهب وقل ما أحببتَ ، فوالله لا أُسْلِمُك أبداً .

من هنا نعلم ان أبا طالب كان يدفع قريش عن محمد ؛ ولكنه لم يكن يومذاك مسلماً .

أخذ المكيون الآن يضطهدون المسلمين . ولم يحتمل بعض الضعفـاء الاضطهاد فارتدوا ، فخاف الرسول على المسلمين الأذى والارتداد أيضاً فأمرهم بالهجرة الى الحبشة . واختار الرسول الحبشة لأن النجاشي المعاصر له كان عادلاً صالحاً ، ولأن الحبشة كانت متجراً لقريش فهم يعرفونهـا

ويعرفون طرق الارتزاق فيها . أمّا لماذا اختار الرسول الحبشةَ فموجز في قول الرسول عليه السلام للذين نصحهم بالهجرة : « لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، فان فيها ملكاً لا يُظلم أحد عنده ، حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه » . ونحن نعلم أن الحبشة كانت على المذهب اليعقوبي القائل بالطبيعة الواحدة في المسيح ، والتي كان يعبر عنها بالاقنوم الواحد أيضاً . ولعل هذا مما كان يجعل المذهب المسيحي السائد يومذاك في الحبشة قريباً من التوحيد .

وكانت الهجرة الاولى الى الحبشة في رجبَ من السَنة الخامسة للدعوة (الثامنة قبل الهجرة = ٦١٥ م) . أما المهاجرون يومذاك فكانوا اثني عشر رجلاً وأربعَ نسوة . وفي العام التالي أسلم عمر بن الخطاب فاكتسب المسلمون شيئاً من القوة والمنعة فعاد مهاجرو الحبشة الى مكة . ولكن سرعان ما استأنف المكيون اضطهادهم للمسلمين واضطرّوا الرسول الى اللجوء الى شعب أبي طالب (الى الحي الذي يسكنه) . وخاف الرسول على الضعاف من المسلمين أن يُعذبوا أو يُفتَنوا عن دينهم فأمرهم بالهجرة الى الحبشة . وقد كان عدد المهاجرين في هذه المرة ثلاثةً وثمانين رجلاً وثماني عشرة امرأة .

على ان المكيين لم ينالوا شيئاً من محمد فحاولوا ان يطالوا المسلمين المهاجرين الى الحبشة فأرسلوا وفداً مؤلفاً من عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة (والد عمر ابن ابي ربيعة) يطلبون من النجاشي ان يسلمهم المسلمين المهاجرين اليه فلم يقبل النجاشي .

الصحيفة ونقضها :

ورأى المكيون ان يحبسوا المسلمون فاضطروهم الى ان يدخلوا في شعب ابي طالب . وكتب المكيون بينهم صحيفة (معاهدة) على ألاّ يبيعوا شيئاً للمسلمين ولا يشترونه منهم ولا يزوجوهم أو يتزوجوا منهم . وظل المسلمون في عزلتهم نحو سنتين او ثلاثاً . ولكن نفراً من المكيين أدركوا أخيراً انه لا يجوز ان يفعلوا ذلك بمحمد واتباعه ، وكلهم من اقاربهم ، فعملوا على نقض

الصحيفة وخرج المسلمون من عزلتهم . وبعد نقض الصحيفة بدأ مهاجرو الحبشة يرجِعون الى مكة .

وفاة خديجة وابي طالب

تُوفيت خديجة بنت خُويلد زوج الرسول ثم توفي عمه أبو طالب بعدها بشهر واحد (٣ ق . هـ . = ٦١٩ م) ، فاشتد الأذى على المسلمين وعلى الرسول خاصة .

الدعوة في مواسم الحج

وحاول الرسول أن ينشر الدعوة الى الاسلام في أحياء العرب ، خارج مكة ، فلقي أذى شديداً في كل مكان . ثم ذهب الى الطائف فكان ما لقيه من أهلها ثقيفٍ أشدّ مما لقيه في كل مكان آخر .

عندئذ عزم الرسول على أن يكتفِيَ بالتعرض للواردين على مكة في أيـــام المواسم . وقد اتفق أن الشاعر اليثربي سُويد بن الصامت الاوسي (وهو غير سويد بن الصامت بن حارثة بن عَديٍّ الخزرجي) قدم الى مكة فعرض لـــه الرسول ودعاه الى الاسلام فلم يسلمْ ولكن لان قلبه . وخاف الاوس ميل سويد الى الاسلام فقتلوه .

ثم وقع نزاع بين الاوس والخزرج ، وهم قبيلتان في يثرب يتصلان بالقربى فانتصر الخزرج على الأوس . فجاء الأوس الى مكة يطلبون التحالف مع قريش على إخوانهم الخزرج فلم تجبهم قريش . وتعرض لهم الرسول بالدعوة فلم تنجح الدعوة فيهم . ولكن بعد أمد جاء نفر من الخزرج الى مكة فتصدى لهم الرسول بالدعوة فمالوا اليه وظنوا انه قد يُجمع بالاسلام بين الاوس والخزرج فدخلوا في الاسلام . وقد بايعت وفود من أهل يثرب الرسول مرتين عند العقبة : **مرة على الاسلام ، ومرة على القتال** (٣ قبل الهجرة = ٦١٩ م) . وكذلك بايع الرسولَ وفدٌ من نساء يثرب ايضاً . ثم فشا الاسلام في يثرب .

ولقد كان اليهود في يثرب مسيطرين على حياتها الاقتصادية فدفع اليثربيين

ذلك الى أن يقوَوْا بالاسلام لعلهم يتخلصون من هذا الاستعباد ايضاً .

الهجرة

وأخيراً أدرك المكيون ان أمر الاسلام يقوى قوة تهددهم في زعامتهم وتجارتهم ، وان رسول الله هو خصمهم الاول في ذلك فقرروا ان يقتلوه . فأخذ الرسول يوعز الى اتباعه بأن يغادروا مكة سراً الى المدينة ، ونفراً بعد نفر ، وأن يهاجر الضعافُ أولاً . أما الهجرة سراً وتدريجاً فكانت الغايةَ منها ألا يكتشفَ المكيون أمرها وشيكاً فيفسدوا خطة الرسول فيها . وبما أن المكيين سيعلمون في آخر الأمر بالهجرة ، حينما ينقص عدد المسلمين كثيراً ، فقد أمر الرسول بأن يهاجر الضعاف أولاً لأنهم أكثر تعرضاً للاضطهاد وأقل احتمالاً له .

ولما لم يبق في مكة مـــن المسلمين سوى نفر قليلين هم محمد رسول الله وأسرته ، وعلي بن ابي طالب واسرته ، وأبو بكر وأسرته ، عزم الرسول نفسه على الخروج مع هؤلاء . الا أن المكيين عرّفوا بسياسة الهجرة هذه وبيّتوا أمرهم على الإيقاع بالرسول ، فعزم الرسول على الخروج من مكة فوراً ومن غير أن يتّبع الخطة التي كان قد اتفق عليها مع علي وابي بكر . وهكذا طلب الرسول من علي ان يبقى في بيته (بيت الرسول) ــ لكي تظل الحركة فيه فلا يفطن المكيون الى ان البيت قد خلا ــ ثم أرسل الى أبي بكر يخبره بأنه اتجه الى غار ثور (جنوب مكة) .

وتبع ابو بكر الرسول الى غار ثور بعد ان عهد الى ابنه عبد الله بأن يأتيه في كل مساء بأخبار الناس وما يتكلمون فيه من شأن الرسول . وكذلك طلب أبو بكر من مولاه عامر بن فُهيرة ان يرعى الغنم بين مكة وغار ثور حتى يمر بغنمه على آثار عبد الله فيُعفّيَها لئلا يتتبع المكيون آثاره اذا فطنوا الى مهمته . وكان ابو بكر قد فاوض رجلاً من المشركين اسمه عبد الله بن ارقد ليـــكون دليلاً للقافلة الى يثرب من طريق تَخْفَى على المكيين .

على ان المكيين عرّفوا بخروج الرسول من مكة ، فكان أولَ ما خطر لهم

انه ذهب الى يثرب فاتجهوا شمالاً يبحثون عنه وقد وضعوا جُعْلاً قدره مائة جمل لمن يرجع به . ولما لم يجدوا الرسول على الطريق الشمالية الى يثرب وقع في نفوسهم ان يكون الرسول قد خالفهم الى ضواحي مكة نفسها فرجعوا يطلبونه هنالك . و صل الى الرسول هذا الخبر فخرج من الغار مع ابي بكر برفقة عبد الله بن ابي بكر وبدلالة عبد الله بن ارقد متجهين كلهم غرباً نحو شاطىء البحر الأحمر . ثم سارت قافلتهم شمالاً في طريق غير مطروقة في العادة ، فلما حاذَوْا يثرب عكفوا اليها شرقاً ووصلوا اليها سالمين (في الثاني عشر من ربيع الاول=خريف عام ٦٢٢ م) .

أثر الهجرة :

كان للهجرة قيمة خاصة في تاريخ الاسلام ، لقد كانت حداً فاصلاً بين عهد كان فيها الاسلام دعوة دينية يحميها نفر قليلون مستضعَفون وبين عهد أصبح الاسلام فيه دولة قوية مرهوبة . وفيما يلي بعض المشاكل التي برزت فذللها الرسول .

١ ــ مركز الرسول في يثرب : كان كل يثربي يود ان يُنْزِلَ الرسول عنده تشرفاً ووجاهة . فخشيَ الرسول ان يؤدي ذلك الى خلاف يستطير بين أهل يثرب من جديد . لذلك قال لجميع من حوله لما دخل يثرب : «اتركوا الناقة فانها مأمورة تبرك أمام المكان الذي اختاره الله » . وبركت الناقة أمام بيت ابي ايوبَ الانصاري، وهو من بني النجار ولكن ليس من الاغنياء الاقوياء.

٢ ــ اسم يثرب : بدّل الرسول اسم يثرب فجعلها مدينة الرسول ثم اختصر الأسم فأصبح « المدينة » .

٣ ــ مشكلة السكنى : كان المسلمون المهاجرون كثاراً وكانوا ، إما فقراء لا يملكون شيئاً أو أغنياء خلفوا أموالهم في مكة . من أجل ذلك «آخى الرسول بين المهاجرين والانصار » ، أي جعل كل رجل من المهاجرين أخاً لرجل من الأنصار يقاسمه سكنه وأمواله ريثما يستطيع المهاجرون ان يجدوا عملاً وسكناً .

٤ ــ الهجرة رمز : وجعل الرسول الهجرة رمزاً للاسلام . لقد أوجب على

كل من يدخل في الاسلام ان « يهاجر » الى المدينة إما للسكنى الدائمة (حتّى يكثُر المسلمون في مكان واحد) ، وإما للزيارة حتّى يختبر بنفسه بعض المشاقّ التي عرفها المسلمون الألون ، وحتّى لا يقيم على الظلم والاضطهاد اذا كان في بيئة وثنية مثل مكة . ولما فُتحت مكة وقوي الاسلام وأمن المسلمون على أنفسهم وأموالهم بطلت قيمة هذا الرمز فقال الرسول : « لا هجرة بعد الفتح » . فبطلت الهجرة .

٥ ــ الاسلام دولة : وفي المدينة أصبح الاسلام ديناً ودولة معاً ، فبدأت قواعد الدولة الاسلامية بالرسوخ وأخذ الرسول يهتم بالأسس الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعلمية التي يجب أن تقوم عليها الدولة . وسيبرز في الوحي بعد ذلك ناحيتان : ناحية الجهاد لتثبيت الاسلام وانشاء الدولة الجديدة ، وناحية التشريع لادارة هذه الدولة .

أعمام الرسول :

يحسن بنا هنا ــ وقد بلغ الاسلام حداً فاصلاً في التاريخ ــ ان نرى موقف أعمام الرسول من دعوته :

(آ) ابو طالب توفي قبل الهجرة . ومع ان هنالك خلافاً في اعتناق ابي طالب للاسلام وبقائه على الشرك فانه قد خدم الرسول خدمات جليلة بماله وجاهه وحنانه .

(ب) حمزة دخل في الاسلام قبل الهجرة في الأغلب .

(ج) العباس لم يدخل في الاسلام قبل الهجرة وان كان قد حمى الرسول من الاضطهاد ورافقه في ذهابه الى القبائل للدعوة . على انه كان في معركة بدر (٢ هـ = ٦٢٤ م) مع المشركين ، ولعله خرج معهم مستكرهاً (رغماً عنه) .

(د) ابو لهب لم يسلم .

* * *

الدولة الاسلامية في المدينة :

ما كاد الاسلام يستقر في المدينة وينشىء دولة حتّى اعترضت سبيله مشاكل

لم يكن بدٌّ من تذليلها . من هذه المشاكل :

١ ــ يهود المدينة الذين خسروا نفوذهم بعد انتشار الاسلام ، فعمدوا الى مقاومة الاسلام جهراً .

٢ ــ اليهود في خارج المدينة (أهل خيبر وبنو النَضير وبنــو قينقاع وسواهم) ممن كانوا يؤلّبون المشركين على المسلمين .

٣ ــ المنافقون ، وهم الذين أسلموا ظاهراً أو جراً لمنافع دنيوية ثم ظلوا يتحيّنون الفرص للكيد للاسلام . وكان المنافقون أشد ما يهدد الاسلام في بيئته الجديدة .

٤ ــ المشركون من العرب ومن أهل مكة خاصة ، اذ كانوا خطراً جاثماً حول المدينة يريدون الوثوب بالمسلمين حينما تسنح لهم الفرصة .

من أجل ذلك كله عمد الرسول الى اتخاذ موقف صريح من هؤلاء جميعهم ، فكان يعقد المعاهدات مع اليهود خاصة ومع بعض القبائل المشركة من العرب انفسهم . أما المنافقون في المدينة والضعاف فكان يتألفهم بالأُعطيات ، اذ يَقسِم لهم جزءاً من الزكاة دفعاً لشر الأشرار منهم ، واستمالة للنافرين ، وتشجيعاً لضعفاء القلوب على الثبات في الاسلام والوفاء للمسلمين . ثم ان الاسلام فرض الجهاد لمقاومة المشركين الذين كانوا يريدون بالمسلمين شراً .

٥ ــ على ان المشكلة الكبرى كانت تنظيم الدولة الجديدة فيما يتعلق بمرافق الحياة التالية :

الادارة ــ القضاء ــ التعليم ــ الجباية ــ الدفاع والحرب ــ التنظيم الاجتماعي (الزوج ، الطلاق، كفالة الأيتام ، الإرث، الخ ..) ــ حل المشاكل المتبقية من الجاهلية (الثأر ، الربا ، الزواج الفاسد) ــ التهذيب الاجتماعي (مقاومة السكر والقمار والفسق والخرافات) . لقد كانت السور المدنية مملوءة بوجوه التشريع لجميع مرافق الحياة ، مما يُعَدّ اليوم ــ حتى بعد مرور ألف وأربعمائة سنة أو تقل قليلاً ــ في أرقى أبواب التشريع . ومما يدعو الى الاعجاب أن الاسلام لم يأت بالاصلاح دُفعة واحدة ، اذ أدرك أن ذلك مستحيل ، بل جاء

به على مراحل : كلما ألف المسلمون مرحلة ارتقى بهم الى مرحلة أشق قليلاً ، كما اتّفق في فرض الصلوات وفي تحريم الخمر مثلاً .

من الاحداث البارزة في الدور المدني :

لما هاجر المسلمون من مكة الى المدينة أصبح الاسلام ديناً ودولة بعد أن كان ديناً فقط ، وأصبح اكثر ارهاباً للمكيين الذين جعلوا منذ ذلك الحين يُعدّون العدة لمقاومته بالقوة . من أجل ذلك جعل الرسول يُعد المسلمين للجهاد بالتربية الخلقية والنفسية ، فقد صلى بهم عامين كاملين — يركعون بركوعه ويسجدون بسجوده ويقومون بقيامه — قبل ان يخوض بهم معركة بدر . وفيما يلي عدد من تلك المعارك التي كان لها أثر بالغ في تاريخ الدعوة الإسلامية (وقد كانت المعركة التي يحضُرها الرسول تسمى غزوة ؛ أما المعركة التي لم يحضرها فقد كانت تسمى سَرِيّة) :

— غزوة بدر (في رمضان من السنة الثانية للهجرة) :

بدر بئر على نحو مائة وخمسين كيلومتراً من المدينة جنوباً في غرب ، وعلى نحو عشرين كيلومتراً من ساحل البحر الأحمر . وكانت بدر على الطريق الممتدة بين الشام واليمن ، كما كان حولها طرق فرعية تربطها بالمدينة وبطريق مكة .

كان المسلمون والمكيون في حالة حرب منذ الهجرة وقد كانت بينهم معارك صغيرة قبل غزوة بدر . ولذلك كانت هذه المعركة الكبرى منتظرة يعد لها الفريقان عُدّته . وبلغ الرسولَ ان قافلة للمكيين راجعة من الشام فعزم على اعتراضها عند بدر ، فخرج في ثلاثمائة أو يزيدون قليلاً بعد ان أحتاط لكتمان خروجه باتّباع طريق فرعية وبنزع الجلاجل (الاجراس) من رقاب الابل وبإرسال العيون للتجسس من أخبار المكيين . ولم يكن المكيون غافلين عن مقاصد الرسول ، ولذلك كان عددهم في تلك القافلة نحو ألف رجل مما يزيد على حاجة القافلة الى الرجال في الأحوال العادية زيادة كبيرة .

وجاء في تاريخ الطبري ، في شأن ترتيب معركة بدر ، أن الرسول لمّا وصل الى مكان المعركة نزل أدنى من الماء ونصب خيمته في مقدمة الجيش .

فقام اليه الحُباب بن المنذر بن الجَموح وقال له : يا رسول الله ، أهذا المنزل الذي نزلته شيء أوحى به الله اليك أم هو شيء من عندك ومن رأيك ؟ فقال الرَسول : هو شيء من عندي . فقال الحباب عندئذ : الرأي أن ننزل أعلى من الماء فنأخذ منه كفايتنا ثم نغوّره ، فاذا جاء المشركون لم يجدوا ماء ، فنشرب ولا يشربون . ثم يحسن أن توُخر خيمتك فتكون في مأمن من العدو ونتعرض له نحن دونك . فقال الرسول للحباب بن المنذر : لقد أشرت بالرأي . ثم قال لأصحابه : افعلوا ما قال أخوكم !

ويبدو ان الرسول قد أدرك ان اللقاء في معركة مكشوفة ، معَ قلة عدد المسلمين وكَثرة عدد المكيين ، غير محمود العاقبة . فأمر الرسول جماعات من المسلمين بالهجوم على الأبل المحمّلة لكي يهتم كل تاجر بالدفاع عن تجارته فيقع الاضطراب في المكيين وتختل صفوفهم ويستحيل عليهم حينئذ ان ينتظموا في معركة يستطيعون ان يتغلبـوا فيها على المسلمين أو أن يدافعوا فيها عن أنفسهم [1] . وهكذا روت لنا المصادر أنه لم يُستَشهَد من المسلمين سوى أربعةَ عشَرَ رجلاً بينما قتل المسلمون من المكيين نحو سبعين وأسروا منهم نحو سبعين آخرين . وقد يكون في عدد القتلى من المسلمين شيء من التقليل وفي عدد القتلى والأسرى من المكيين شيء من المبالغة . ولكن هذه المعركة كانت نصراً حاسماً للمسلمين ودلت على أن الإسلام كان قد أصبح قـوة عسكرية عظيمة . ثم ان الرسول وضع قوانين دولية للحرب فعامل الأسرى معاملة رحيمة ووعد باطلاق سراح كل أسير يفتدي نفسه بالمال أو يعلم عشرة من أطفال المسلمين القراءة والكتابة .

---

(١) في سورة الأنفال (٨ : ٦) : « وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم .... »

– تفسير الآية : إحدى الطائفتين : العير (البضائع المحملة على الابل ، أي الغنائم) أو النفير (الجيش المحارب ، أي الظفر العسكري) . كنتم أنتم تفضلون الغنائم المادية . ولقد كانت النتيجة ان الله أظفركم بالطائفتين : انتصرتم انتصاراً عسكرياً باهراً وغنمتم الغنائم المادية ايضاً.

اليهود ينقضون العهد

كان رسول الله قد وادع يهود المدينة على ألاّ يعينوا عليه أحداً ، وعلى أنه اذا دهمه عدو نصروه . ولقد وفى اليهود في أوّل الأمر بذلك لاعتقادهم أن الاسلام حركة ضعيفة لن تثبت أمام قريش . ولكن لما انتصر المسلمون في غزوة بدر تجلت لهم الحقيقة فأظهروا البغي والحسد وجعلوا يمالئون قريش ، فكان ذلك نقضاً للعهد الذي كان بينهم وبين الرسول . وعلى أثر ذلك نزل قوله تعالى : « وإمّا تخافَنّ من قوم خيانة فانبُذ اليهم على سواء (افعل كما فعلوا ، انقض عهدهم) ، ان الله لا يحب الخائنين (٨ : ٥٨) » . وكان بنو قَينُقاع أول من أظهر نقض العهد فسار اليهم الرسول في أواخر سنة ٢ هـ ، بعد معركة بدر ، فحاصرهم خمسَ عشْرة ليلة ثم أجلاهم عن المدينة وصادر أموالهم وسلاحهم . ولم يكن لهم أرضون .

— غزوة أحُد ، في شوال من السنة الثالثة للهجرة (٦٢٥ م) .

« أحد » جبل على أربع كيلومترات شمال المدينة .

لم ينم المكيون على هزيمتهم في بدر ، بل نشطوا فجمعوا نحو نصف مليون درهم افتدَوا معظم أسراهم بقسم منها (بمعدل ٤٠٠٠ درهم لكل أسير) ثم وقفوا الباقِيَ على الاستعداد لمعركة مقبلة . ولم يكتف المكيون بتجييش مواطنيهم بل استنفروا القبائل أيضاً وجاءوا بغتة ، فيما يبدو ، بنحو ثلاثة آلاف رجل بقيادة ابي سفيان واختاروا جبل احد معسكراً يُطلون منه على المدينة . وقد كان خالد بن الوليد يقود قسماً من خيل المكيين .

وبوغت المسلمون بزحف المكيين ووصولهم الى أحد فلم يستطيعوا ان يجمعوا اكثر من سبعمائة رجل لردهم . ورأى الرسول ان يستعيض عن العدد بترتب منظم للمعركة . والظاهر أن المسلمين لم يستطيعوا أن يتخذوا مراكزهم على جبل أحد نفسه فأقاموا صفوفهم عند سفحه الشرقي وسفحه الشمالي الشرقي وأمر الرسول خمسين رجلاً من الرماة بأن يقفوا على عينين (وهو في الحقيقة تلّ) وجعل معهم نفراً قليلين من الفرسان بقيادة الزبير ، ثم أمر الجميع بأن

يلزموا أماكنهم هذه وألا يغادروها مهما حدث ما لم يتلقَّوْا أمراً منه بذلك .

وبدأت المعركة بهجوم المكيين ، اذ انحدروا على المسلمين (متجهين من الغرب الى الشرق) . غير أن المسلمين الذين كانوا يحتلون مراكز أضعف من مراكز المكيين – ولكنهم كانوا أعرف بها منهم – استطاعوا ان يهزموا طلائع المشركين في بضع ساعات . ثم ان خالد بن الوليد هجم على المسلمين بخيله من الجنوب حتى يخفف الضغط على المكيين . واستطاع الرماة المسلمون الذين كانوا على تل عينين ان يردوا خالداً في أول الأمر . في هذه الأثناء كان معظم الجيش الاسلامي العامل في الميدان قد أخذ بجمع الاسلاب . ورأى الرماة الواقفون على تل عينين ذلك وظنوا ان المعركة قد انتهت ، ثم خافوا على نصيبهم من الاسلاب فتركوا مراكزهم وانحدروا الى السهل . عندئذ انتهز خالد بن الوليد فيهم الفرصة وكرّ على المسلمين الذين أُخذوا على حين غرة فتركوا كلهم جمعَ الاسلاب وانقلبوا يقاتلون خيل خالد . وأحس المشاة المكيون أن الضغط عليهم قد خف ، ولمحوا المسلمين يدافعون جيش خالد عنهم ، فكروا هم أيضاً راجعين الى الميدان . وهكذا أطبق المكيون على المسلمين من الغرب ومن الجنوب ، وكانوا يزيدون عليهم أربعة أضعاف ونصف ضعف ، فأثخنوا فيهم الجراح . وقد قتل في هذه المعركة من المسلمين سبعون رجلاً فيهم حمزة عم الرسول ، وجرح كثيرون فيهم الرسول نفسه . ولم يقتل من المكيين سوى ثلاثة وعشرين رجلاً .

في هذه الاثناء كان الرسول قد أيقن بالدور الخطر الذي كان اليهود يقومون به في المدينة لحساب المكيين فغزا بني قَيْنُقَاع ، في السنة الثانية بعد بدر ، كما كان مقتل كعب بن الاشرف وأبي رافع اليهوديين ، في السنة الثالثة للهجرة ، قبل غزوة أحد ، وفي السنة الرابعة للهجرة أجلى الرسول بني النَّضير عن المدينة . على ان هذا كله لم يمنع من ان يكون للرسول عيون في مكة يبلّغونه ما يحيكه المكيون له من المكائد .

غزوة الخندق (شوّال من السنة الخامسة للهجرة=آذار ٦٢٦ م) :

انسحب المكيون من أحد وهم يضمرون في انفسهم أن يعودوا الى المدينة بقوى أكثر عدداً وعدّة . ومضى المكيون في المدن والبوادي يؤلّبون القبائل على المسلمين، وقد ساعدهم اليهود في هذه المرة بأموالهم علانية . ولم يُباغَت المسلمون هذه المرة بهجوم المكيين فلقد علموا به في أثناء تهيئته . وأدرك الرسول أنْ لا قِبَل لأهل المدينة بمقاتلة المشركين هذه المرة في معركة مكشوفة لأنه علم بأن عددهم سيكون عظيماً جداً . لذلك قرّ الرأي على حفر خندق حول النقاط الضيقة من المدينة لمقاتلة المشركين من ورائه . والمعروف من معظم المصادر أن سلمان الفارسي هو الذي أشار على الرسول بحفر الخندق . ولكن يبدو أن ثمت مراسلة بين الرسول وبين أبي سفيان يذكر فيها الرسول أن الله ألهمه حفر ذلك الخندق .

وخط الرسول الخندق متعرجاً ، حتى يمر ببعض التلال وبعض الفجوات ، ثم جعل طوله نحو عشرة كيلومترات . وكان الخندق يحمي المدينة من الشمال والشرق . وقد عمل في حفر هذا الخندق ثلاثة آلاف رجل ، كان كل عشرة منهم يحفرون في نقطة . وقد بدأ الحفر في النقاط المختلفة في وقت واحد . واستغرق حفر الخندق نحو عشرين يوماً . أما الرسول فقد أشرف على حفر الخندق إشرافاً تاماً ، وكان أحياناً يساعد في الحفر ونقل التراب .

وعسكر المسلمون على جبل سَلْع ، وهو يطل على ما وراء الخندق من الجهتين الشمالية والشرقية . أما المكيون فكانوا بعيدين عن مراكز تموينهم ، فسرعان ما أصبحوا يشكون نقصاً في المؤن . وحاول اليهود ان يموّنوا المشركين من خيبر فوقعت مقادير من مؤنهم في أيدي المسلمين . وكان أحلاف المكيين مرتزقة جاءوا لحصار المدينة بعد أن وعدهم المكيون بمبالغ معينة . فلما طال الحصار سئموا المُقام . وفاوض المسلمون نفراً من رؤساء القبائل للانسحاب لقاء مقادير من غلال المدينة ، ولكننا لا نعلم ما تم بهذا الشأن . ثم اتّفق ان ثارت ريح شديدة ، باردة في الأغلب ، فقلبت خيام المحاصرين فجمعوا

خيامهم وانصرفوا . وقد عرفت هذه الغزوة باسم غزوة الاحزاب أيضاً لأن جميع الأحزاب في الحجاز ونجد ، من الوثنين واليهود ، قد اشتركوا فيها .

وكان لارتداد الاحزاب عن المدينة معنى كبير هو أن الاسلام كان في ذلك الحين قد أصبح أقوى من جميع خصومه متظاهرين . من أجل ذلك صرنا نرى المكيين يتقربون من الرسول لإحلال السلام بين مكة والمدينة ما أمكن .

وبعد الخندق مباشرة غزا الرسول بني قُريظة اليهود . وكذلك أسلم عمرو ابن العاص وخالد بن الوليد في هذه المدة ، بعد الخندق وقبل الحُدَيْبية .

صلح الحُديبيةِ (آخر ٦ هـ= ربيع عام ٦٢٨ ، والحديبية بئر على مقرُبة من مكة ،

خرج الرسول في سبعمائة رجل (وقيل ١٤٠٠) يريد الحجِ لا القتال ، ولكن المكيين عزموا على أن يمنعوه من دخول مكة بكل سبيل . ويبدو أن المكيين جمعوا لصده عدداً كبيراً من المقاتلين . فآثر الرسول أن يترك دخول مكة في ذلك العام وأن يعقد بينه وبين المكيين هدنة مداها عشر سنين . وقد احتج على عقد هذه الهدنة نفرٌ من المسلمين فيهم أبو بكر وعمر . ولكن الرسول اقنعهم بصواب عقد الهدنة في ذلك الحين ، مع أن بعض الشروط لم تكن في مصلحة المسلمين .

وقد بدأت وثيقة الهدنة بأنها اتفاق بين « محمد بن عبد الله » وبين « سهيل ابن عمرو » (ممثل المكيين) ، وجاء فيها :

آ — يترك الخيار للناس ، في أثناء هذه الهدنة ، في أن ينضموا الى المكيين أو الى المسلمين .

ب — من كان من المشركين قاصراً أو رقيقاً وأسلم ، في أثناء هذه الهدنة ، فانه يرد الى قريش . وأما من كان من قريش مسلماً وأراد أن يعود الى قريش فانه لا يرد الى المسلمين .

ج — للرسول أن يرجع بعد عام الى مكة فيدخلها حاجّاً في نفر من أصحابه ويمكث فيها ثلاث ليال فقط ، ولا يكون حينئذ مع المسلمين الا سلاح المسافر ،

واذا كان مع أحدهم سيف فيجب ان يظل ذلك السيف مغمداً .

ويبدو أن جماعة من المسلمين ظلوا يرون أن الفرصة كانت سانحة في المشركين من أهل مكة وأن هذه الهدنة سلبتهم تلك الفرصة . من أجل ذلك نزلت سورة الفتح (السورة ٤٨) عند الانصراف من الحديبية ، وفيها تقريع للظانّين بالله ظن السَّوء (٤٨ : ٥) وتبرير لعمل الرسول ، لأن الرسول كان يأمل – فيما يبدو – أن يخرج معه في تلك الغزوة عدد كبير من المسلمين فتخلف أكثرهم : « قل للمخلّفين من الأعراب ستُدْعَوْنَ الى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون . فان تطيعوا يؤتكم اللهُ أجراً حسناً ، وان تتولّوا كما توليتم من قبل يعذبْكم عذاباً أليما » (٤٨ : ١٦) . ثم تذكر هذه السورة ما يُدخل الاطمئنان على قلوب المسلمين وتعدهم بفتح مكة صلحاً في وقت قريب .

– سرية مؤتة (جمادَى الاولى سنة ٨ هـ = أيلول ٦٢٩) :

بعث الرسول هذه السرية الى الشام وجعل عليها ثلاثة قادة : زيدَ بن حارثة ، فان قتل فجعفرَ ابن أبي طالب ، فان قتل فعبد الله بن أبي رَواحة . وكان في هذه السرية ثلاثة آلاف رجل من المسلمين . فلما وصلوا الى مؤتة ، قرب مَعان ، لقيتهم جموع غفيرة من الروم ومن العرب الذين كانوا تحت سلطان الروم . وقد ذكر ابن هشام في السيرة ان جموع الروم وأشياعهم كانت يومذاك مائتي ألف رجل . وتردد المسلمون في أول الأمر في ملاقاة الروم ثمَ شجُعوا وخاضوا المعركة ، فقتل زيد بن حارثة ثم جعفر ثم عبد الله بن ابي رواحة . ويبدو أن القتل استحرّ في المسلمين (مع أن ابن هشام سمى قتلى مؤتة فكانوا عنده اثني عشر رجلا) ، فأخذ خالد بن الوليد القيادة ونجا بالمسلمين .

ولا ريب في أن معركة مؤتة كانت هزيمة شديدة للمسلمين ، ولكنها دلت على أن الرسول كان يفكر ، منذ زمن متقدم ، بأن يفتح الشام وما وراءها لنشر الاسلام في خارج شبه جزيرة العرب أيضاً .

ــ فتح مكة (رمضان سنة ٨ هـ=كانون الثاني ٦٣٠) :

لما عقد الرسول صلح الحديبية مع المكيين اختار بنو بكر أن يدخلوا في عهد قريش ، واختارت قبيلة خزاعة أن تدخل في عهد رسول الله. وقد اتفق نزاع بين بني بكر وبني خزاعة اعتدى فيه بنو الديل من بني بكر على بني خزاعة عند الوتير (وهو ماء بأسفل مكة) . وقاتل مع بني الديل جماعة من قريش . وبلغ الخبر الى رسول الله فغضب وعد الهدنة التي بينه وبين المكيين منقوضة بما نقضوا هم من العهد وغدروا . وأدرك أبو سفيان مغبة ما صنع المكيون فجاء الى المدينة معتذراً عما حدث ، فلم يقبل رسول الله ان يستقبله ولا رضي أحد من المسلمين أن يشفع له عند رسول الله حتى ابنته أم حبيبة ، وكانت قد أسلمت وتزوجها الرسول .

ثم ان الرسول أمر الناس في المدينة بالتهيوء وأنفذ الى القبائل النازلة بين المدينة ومكة أن تكون متأهبة للانضمام اليه حينما يمر بها ، كسباً للوقت . وخرج الرسول من المدينة في العاشر من رمضان (الرابع من كانون الثاني) ، فما بلغ مكة الا وقد أصبح جيش المسلمين عشرة آلاف مقاتل . وكان الرسول قد أمر كل مقاتل ان يشعل ناراً اذا نزل الليل حتى يبهر المكيين بذلك فيظنوا ان عدد المسلمين أكبر مما هو فعلاً فتنقطع قلوبهم . ثم اتفق أيضاً ما بلبل أمر المكيين ، وذلك أن أبا سفيان زعيم مكة كان يتجول حول مكة فعرّفه عسس المسلمين وأخذوه أسيراً ، ثم لم يطلقوا سراحه الا في اليوم التالي . وهكذا قضى المكيون الليل من غير ان يقرّروا أمراً لغياب أبي سفيان .

وأدرك المكيون ، كما أدرك أبو سفيان نفسه أيضاً ، أنْ لا قِبَلَ لهم بمقاومة المسلمين ، ولكنهم لم يكونوا قد أجمعوا على أمر بعد . وعرف الرسول حال القوم فأرسل عمه العباس الى أبي سفيان وأوصاه بأن يفاوض ابا سفيان وان يرفع من شأنه في ذلك بأن ينادى في مكة ، اذا بدأت جيوش المسلمين تدخلها : «من دخل بيت أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه

بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن » . وجاء العباس الى ابي سفيان واقنعه بالذهاب الى رسول الله . فجاء أبو سفيان الى الرسول وأسلم بين يديه . ثم ان الرسول وقف مع ابي سفيان والعباس ونفر من اصحابه على شَرَفٍ من الأرض وجعلت جيوش المسلمين تمر بهم قبيلة قبيلة ، فهال أبا سفيان ما رأى واقنع المكيين بترك المقاومة ، على كره منهم . ولما دخل الرسول الى مكة (في ٢٠ رمضان) جاء الى الكعبة فطمس الصور التي في داخلها ونكس الاصنام التي على ظهرها . وبفتح مكة انتهت المقاومة المركزية في شبه جزيرة العرب ، وتُركت القبائل التي لم تكن قد دخلت بعد في الاسلام تدبر أمرها بنفسها .

— غزوة حُنين (٨ هـ = ٦٣٠ م) :

بعد فتح مكة اجتمع عدد من قبائل العرب ممن لم يكونوا قد دخلوا في الاسلام ، من هَوازن وثَقيف وجُشَم ونصر وسعد بن بكر وبني هلال ، وعزموا على أن يسيروا لحرب المسلمين . وبلغ رسولَ الله ذلك — ويبدو أنه كان لا يزال في مكة — فأحب ان يهاجمهم قبل ان يهاجموه . فجمع ألفين من أهل مكة وضمهم الى العشرة آلافاً الذين كانوا قد خرجوا معه من المدينة لفتح مكة ، ثم اتجه بهم جميعاً نحو مكان يدعى حنيناً شرقَ مكة ، وهو يبعد عنها مسافة تتراوح — حسب تقدير الدارسين لموقع المعركة — بين ٢٥ و ٦٥ كيلومتراً . فلما وصل المسلمون الى وادي حنين (وهو من أودية تِهامة) خرج عليهم المشركون من كمين هنالك فانهزم المسلمون لا يلوُون على شيء . ولم يثبت مع الرسول الا جماعة من المهاجرين والانصار فيهم أبو بكر وعمر وعلي والعباس ، لم يزيدوا كلهم على مائة ، كما ذكر ابن هشام . ولكن المعركة انتهت ، على كل حال ، بانتصار المسلمين .

— غزوة الطائف (بعد حنين) :

كان بنو ثقيف قد آذوْا رسول الله كثيراً ، ثم انهم انضموا كلهم الى

المشركين يوم حنين . فأراد الرسول ان يَخْضُدَ شوكتهم فهاجم الطائف بعد حنين مباشرة وحاصرها نحو شهر ونصب عليها المنجنيق حتّى هدم سورها ودخلها ظافراً .

ـ غزوة تبوك :

وفي رجب من عام ٩ للهجرة (تشرين الاول ٦٣٠ م) أراد الرسول ان يسير بنفسه الى حرب الروم . وبما ان ذلك العام كان عاماً مجدباً لم يستطع كل انسان ان يجهز نفسه بما يحتاج اليه من الطعام والسلاح ، ولذلك سميت هذه الغزوة «غزوة العُسْرة» . من أجل ذلك قام بنفقات هذه الغزوة نفر من الصحابة : تبرع أبوبكر بجميع ما يملك ؛ وتبرع عثمان بن عفان الأموي بمال عظيم بلغ ثلاثمائة بعير والف دينار . ولكن الروم لم يتعرضوا للرسول ، فعقد الرسول معاهدات مع البلدان المتاخمة للحجاز كأيْلة (العقبة) وأذْرُح وجرْباء ومَقْنا ، وفرض على كل بلدة جزية معينة ، مع العلم بأن هذه البلاد كانت خاضعة لنفوذ الروم .

عـام الوفود :

انتصر الاسلام في شبه جزيرة العرب ، ولم يبق فيها سوى قبائل متفرقة لم تدخل في دين الله . فلما رأى رجال هذه القبائل ان مكة التي نصبت الحرب لرسول الله قد دخلت في الاسلام ثم فتحت أبوابها للمسلمين ، ادركوا أن لا طاقةَ لهم بحرب المسلمين وعداوتهم ، فأخذوا منذ السنة التاسعة للهجرة (٦٣٠ ــ ٦٣١ م) يَفِدون على الرسول في المدينة اظهاراً لطاعتهم ، ثم يدخلون في الاسلام . وهكذا دخل العرب ــ الذين لم يكونوا قد دخلوا بعدُ في الاسلام ــ في دين الله افواجاً . فأسلم بنو ثقيف (في الطائف) وبنو أسد (في نجد) وبنو تميم . ثم تتالت وفود اليمن وما حولها بعد ذلك (سنة ١٠ هـ) .

حجة الوداع

اطمأن الرسول الآن على الاسلام بعد ان ثبتت قواعده في شبه جزيرة

العرب وتنظمت أسسه ، ثم استغنى المسلمون عن الحرب لنشر الاسلام في شبه جزيرة العرب نفسها . ففي آخر ذي القَعدة من عام ١٠ للهجرة (آذار ٦٣٢ م) دعا الرسول الى حج كبير الى مكة ، وخطب هنالك بعد انتهاء موسم الحج خطبته المشهورة :

« أيهـا الناس ، أسمعوا قولي فإني لا أدري لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف . أيهـا الناس ، ان دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقَوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا . وانكم ستلقَون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، وقد بلّغت . فمن كانت عنده أمانة فليؤدّها الى من ائتمنه عليها . وان كل رباً موضوع (ملغىً) ؛ ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تَظْلمون ولا تُظلمون . قضى الله ان لا ربًا ، وان ربا العباس بن عبد المطلب (عم الرسول) موضوع كله . وان كل دم (ثأر) كان في الجاهلية موضوع ..

أما بعد ، أيها الناس ، فان الشيطان قد يئس من ان يعبد بأرضكم هذه أبدا ، ولكنه ان يطع فيما سوى ذلك ، فقد رضي ..

أما بعد ، أيها الناس ، فان لكم على نسائكم حقاً ولهنّ عليكم حقاً .. فاستوصوا بالنساء خيراً .. فاعقلوا ايها الناس قولي فإني قد بلّغت .

وقد تركت فيكم ما إنِ اعتصمتم به فلن تَضلّوا ابدا : كتاب الله وسنة نبيه .

أيها الناس ، كل مسلم أخ للمسلم ، وان المسلمين اخوة فلا يَحِلُّ لامرىء من أخيه الا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تَظْلُمنّ أنفسكم ، اللهم هل بلغت (فقال الناس : نعم ! فقال عندها رسول الله :) اللهم أشهد ! »

وقد عرفت هذه الحِجة باسم « حِجة الوَداع » لأنها آخر حِجة حجها الرسول ، وسميت هذه الخُطبة « خطبة الوداع » أيضاً .

وفي آخر صفر عام ١١ هـ (آخر أيار ٦٣٢ م) مرض الرسول وأخذته الحُمّى ، ثم توفّي يوم الاثنين في الثاني عشر من ربيع الاول من سنة ١١ للهجرة . (٨ حزيران ٦٣٢ م) .

عصر الخلفاء الراشدين

الدور الاول : الفتوح وتنظيم الادارة

توفي رسول الله من غير أن يسميَ أحداً يخلُفه في ادارة شؤون المسلمين . غير أن الشيعة (أنصار علي بن أبي طالب) ذكروا أن الرسول أوصى بالأمر بعده الى علي بنصوص وأدلة منها ما هو جليّ ومنها ما هو خفيّ . والذي نعرفه من التاريخ السياسي والتاريخ الأدبي يدلّنا على أن علياً كان يطمح الى الخلافة ويعتقد أنه أحق الناس بها ، لقرابته من رسول الله : فهو ابن عمه لَحاً ، ثم لسابقته في الاسلام فقد كان من أوائل الذين آمنوا برسول الله مع أنه كان يومذاك ابن عشر سنوات . ثم أنه كان من الذين أبلَوْا في سبيل الاسلام البَلاء الحسن . أضف الى ذلك كله علمه وعدله وتقواه ثم زواجه بفاطمة بنت محمد . ولكن علياً كان يوم توفي الرسول صغير السن ، في الثالثة والثلاثين من عمره ، بينما العرف العربي القديم كان لا يبايع رئيساً الا اذا علت سِنُّه في الغالب .

غير أن الأمر كان أخطر من ذلك كله ، فقد بدا لعمر بن الخطاب ، وهو من رؤساء المهاجرين ، أن النظر في استحقاق الأفراد وتفضيل بعضهم على بعض سيقود الى خلافات قد تقضي على الدعوة الاسلامية — وجميع الحوادث التي وقعت في مدى ثلاثين سنة ، طوال عصر الخلفاء الراشدين ، كانت تدل على أن رأي عمر بن الخطاب كان في محله — . من أجل ذلك عزم عمر بن الخطاب على أن يأخذ الأمر بالحزم والسرعة ويضع المسلمين أمام الأمر الذي لا مفرّ منه ولا خِيَرَةَ فيه . ونحن نعلم أن البشر في مثل

هذه الأحوال ثلاثة نفر : منهم من يجيب الى كل أمر يدعى اليه بلا مقاومة ولا تردد ؛ ومنهم من يتريث متربّصاً ، فاذا رأى مجموعاً من الناس دخلوا في أمر دخل هو فيه ؛ ومنهم من دأبهم المخالفة والمقاومة مهما كان الأمر الذي يُدْعى اليه .

أبو بكر (عبدالله بن أبي قُحافة) — ١٣ ربيع الاول سنة١١=٨حزيران ٦٣٦

وبدا لعمر بن الخطاب أن أليق الصحابة بالخلافة أبوبكر عبدالله بن أبي قُحافة ، صديق الرسول من قبل الاسلام ، ومن أوائل الذين دخلوا في الاسلام ، ومن الذين علت سنهم وسمت مكانتهم في قومهم مع لين العريكة وحسن الأُحدوثة والتقوى . فرافقه الى المسجد ، قبل أن يدفن رسول الله ، وبايعه . فانثال الناس على أبي بكر يبايعونه : وغضب نفر فلم يبايعوا ، وقد كان من هؤلاء علي بن أبي طالب .

وأدرك عمر بن الخطاب أن امتناع علي عن مبايعة أبي بكر ليس امتناع رجل واحد من سائر الناس ، وانما هو امتناع فئة كبيرة نافذة الأمر ، فقد كان علي يمثل بني هاشم أسرة الرسول نفسه . فظل عمر يسعى حتى حمل علياً على المبايعة في حديث طويل . وكان من نَفاذ بصر عمر بن الخطاب أنه لم يطلب الأمر لنفسه ، مع أنه كان في خلافة أبي بكر نافذ الكلمة مطاع الرأي .

جيش الفتح

كان أولَ ما فعله أبوبكر أن وجه جيش أسامة بن زيد الى حرب الروم في الشام (سورية) ، لأن الرسول نفسه كان قد عقد لواء هذا الجيش قبل موته ، فلم يشأ أبوبكر أن يبطل ذلك ، مع اختلاف الأمر بعد وفاة الرسول واضطراب الحال . ومع أن جيش أسامة هذا كان قليل الخطر من حيث الإعداد والنتائج ، فانه كان يدل على أمور منها :

(آ) أن الرسول نفسه كان يرغب في التوسع بالفتح لنشر الاسلام .

(ب) ان الخطر على الدولة الاسلامية كان محتملاً من جهة الروم في الشام .

(ج) ان البدء بالفتح بالشام كان أهون من الناحية العسكرية والسياسية .

الردة

تذكر المصادر أن العرب « ارتدوا » بعد وفاة الرسول . ويفهم عامة الناس من ذلك أن العرب رجعوا عن الاسلام الى الوثنية . فاذا نحن تتبعنا تلك المصادر رأينا أن تلك الردة كانت في الدرجة الاولى ثورة على السلطة المركزية في الحكم وفي النظام الاقتصادي . وليس بين أيدينا نص واحد على أن قبيلة من قبائل العرب « كفرت » بالله أو تركت صلاة أو زكاة . وقد تبدى النزاع في الردة حول الأمور التالية :

(آ) لم يشأ سكان البادية (الأعراب) أن يستمروا في الخضوع لسكان المدن (الحضر) . لقد احتجوا بأن خضوعهم الاول كان لرسول الله ، طوعاً أو كرْهاً . أما وقد توفي رسول الله فليس لأحد غيره أن يقتضيَهم تلك الطاعة ، وذلك قول الحُطيئة :

أطعنا رسول الله اذ كان بيننا ؛ فيا لَعبادِ الله ، ما لأبي بكر !
أيورثها بكراً ، اذا مات ، بعده ؟ وتلك ، لَعَمْرُ الله ، قاصمة الظهر .

(ب) وكذلك كانت الردة نزاعاً بين شرقي شبه جزيرة العرب وبين غربيّها ، فقد كان مَسلمة بن حبيب (مُسيلِمة الكذاب) سائداً في اليمامة من قبل مبعث رسول الله ، ثم حارب بعد موت الرسول وقتل في المعركة .

(ج) كانت الزكاة في أيام الرسول تحمل من أطراف بلاد العرب الى المدينة ، وكان الرسول يتولى توزيعها على مستحقيها وفي وجوهها في كل مكان . فلما توفي الرسول رأى الولاة في أطراف بلاد العرب أن يجمعوا الزكاة ثم ينفقوا منها أولاً على الأقطار التي جمعت فيها . فاذا زاد منها شيء بعثوا به الى المدينة . ولم يمنع أحد الزكاة . وهذا واضح في قول أبي بكر : « والله لو منعوني عقال بعير كانوا يؤدّونه الى رسول الله لحاربتهم

عليه »[1] .

(د) كان مدّعو النبوة يحتجون بأمور ليست من صلب الايمان او الاسلام . اذ كان معظمهم يرمون الى تولّي الحكم على المناطق التي ثاروا فيها . والرواة الذين أرادوا التهكمَ على مدّعي النبوة زعموا أن مسيلمة لما خطب سَجاح جعل صداقها إسقاط صلاة العصر عن بني حنيفة . ان هذه « الفكاهة » تنطوي على حقيقة بالغة هي أن الصلوات الاسلامية كانت قائمة في القبائل المرتدة ، وكان لها قيمة ورهبة في النفوس .

جمع القرآن

بعد معركة اليمامة ، في أثناء حروب الردة ، مات نفر كثيرون من حَفَظة القرآن ، فرغب عمر بن الخطاب الى أبي بكر أن « يجمع » القرآن في مصحف واحد كيلا يتعرضَ شيء منه للضياع . كان الوحي يدون في أيام الرسول بعد نزوله مباشرة على أشياءَ مختلفة : من الخشب ، والجريد ، واللِخاف (صفائح رقيقة من الصخر) والجلد ، ولكن لم يكن مجموعاً بين دفتي مصحف (كتاب) واحد ؛ فجمعه أبوبكر .

استئناف الفتح — في العراق

كان معظم الذين ساروا لقتال المرتدين من أقدر القواد الذين اشتهروا فيما بعد : كان فيهم خالد بن الوليد والمُثَنّى بن حارثة ويزيد بن أبي سُفيان وعمرو بن العاص وشُرَحْبيل بن حسنة . فلما عاد المرتدون الى طاعة السلطة المركزية في المدينة ، كانت حمية جيوش هؤلاء القواد لا تزال شديدة . ففكر المثنّى ابن حارثة الشيباني ، بعد أن انتهى من قتال أهل البحرين (شرق بلاد العرب) ، أن يسير بمن معه لقتال القبائل العربية التي كانت تعيش

---

(1) في القاموس (٤ : ١٩) : العقال (بكسر العين) زكاة عام من الابل والغنم ، ومنه قول أبي بكر رضي الله عنه : لو منعوني عقالا .... راجع في القاموس أيضاً (٣ : ٢٦٩) : العناق (بفتح العين) زكاة عامين ، ومنه قول أبي بكر : لو منعوني عناقا ؛ ويروى عقالا وهو زكاة عام .

على تخوم شبه جزيرة العرب (في العراق خاصة)، والتي لم تكن قد دخلت في الاسلام بعد. ولم يكن مع المثنى سوى أربعة آلاف رجل، فأشفق أبو بكر أن تصيبهم هَلَكة اذا لقُوا جيوش الفرس في عَدَدهم وعُددهم. من أجل ذلك أنجد أبوبكر المثنى بن حارثة بعشرة آلاف رجل بقيادة خالد بن الوليد. وكان من أسباب استئناف الفتح:

(آ) تنفيذ رغبة الرسول في نشر الدعوة في العالم.

(ب) صرف حمية العرب من قتال بعضهم بعضا في قلب شبه جزيرة العرب الى قتال أعدائهم المحيطين بهم.

(ج) تدعيم للحدود العربية في وجه الفرس والروم الذين بدأوا يَضيقون صدراً بالدعو ة الاسلامية.

وتصدى الفرس والروم مجتمعين لقتال العرب ورَفَدَهم في ذلك عدد من القبائل العربية. ولكن خالد بن الوليد انتصر في معارك عديدة منها ذات السلاسل (المحرم ١٢ هـ =آذار ٦٣٣ م) والوَلجة وألّيْس (صفر من سنة ١٢) وعين التمر ودومة الجندل وسواها.

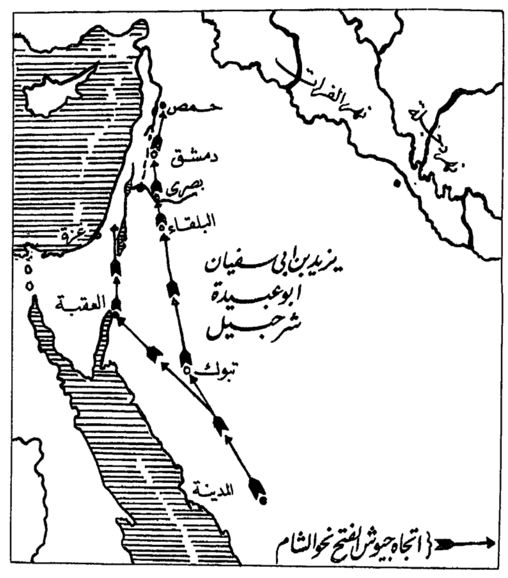
الفتح في الشام: اليرموك

ولما ثبتت الجبهة العربية في العراق أمر أبوبكر خالداً بالتوجه الى الشام، فوصل خالد الى الشام في أواخر ربيع الثاني من سنة ١٣ (أواخر حزيران ٦٣٤).

وفيما كان الجيش العربي على اليَرْموك توفي أبو بكر (مساء الاثنين في ٢١ جُمادَى الآخرة من سنة ١٣ = ٢٣ آب ٦٣٤). وكان أبو بكر لما حضرته الوفاةُ قد خشي أن يختلف المسلمون بعده فأوصى بالخلافة لعمر بن الخطاب. ومع أن هذا العمل قد وفر على المسلمين مشاكل آنيّة كثارا، فانه قد زاد في الوحشة التي كانت قد وقعت بين المهاجرين والانصار، وبين بني هاشم وسائر المسلمين على الاخص. وأعلن علي بن أبي طالب أنه قد حِيل بينه وبين الخلافة مرة ثانية.

عمر يعزل خالداً

وكان أولَ ما فعله عمر أن عزل خالد بن الوليد عن جيوش الفتح وولّى



عليها أبا عبيدة عامر بن الجرّاح . واختلفت الآراء في سبب ذلك ثم استقرت على ما يلي :

(آ) كان بين عمر وخالد وحشة منذ أيام حروب الردة . ان خالداً كان قد قتل مالك بن نويرة وأحرقه بالنار ثم تزوج امرأته . ولما سأله أبوبكر

عن ذلك قال بأن مالكاً سقط قتيلاً في المعركة . ولما سئل الجند في ذلك ذكروا أنهم سمعوا في ديار بني نويرة الأذان . وأراد عمر يومذاك أن يعاقب خالداً فلم يقبل ابوبكر . فلما وَلِيَ عمر الخلافة عزل خالداً عن قيادة الجيش وولّى أبا عبيدة .

(ب) وقال آخرون ان خالداً كان شديداً على الجند في الحرب وكان أبو عُبيدة أرفق منه .

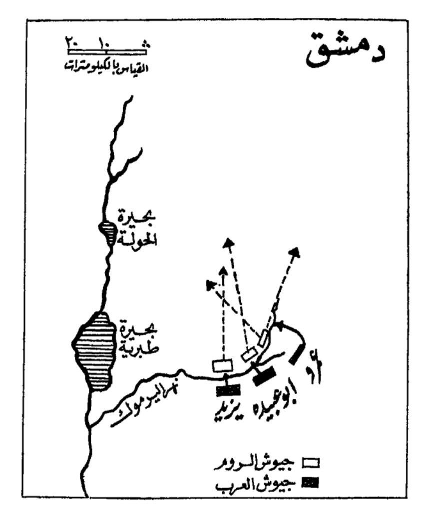
(ج) ومما لا ريب فيه أن عمر كان صديقاً لأبي عبيدة ، ومن عادة الحكام أن يتعاونوا مع الأشخاص الذين يستطيعون التفاهم معهم . فاذا أضفنا هذا إلى ما تقدم لم نستغرب ما فعل عمر ، بل وجدناه طبيعياً .

ومع ذلك فان خالداً وأبا عبيدة ، لم يتقيدا بأمر عمر مع العلم بأن عمر أنفذ أمره بعزل خالد وتولية أبي عبيدة مرتين . أما ابو عبيدة فرأى أن خالداً كان قد رتب المعركة ، وتغيير القيادة يقتضي تبديل ذلك الترتيب بسرعة . وهذا يدخل شيئاً من الوَهَن على قلوب الجنود ويُفضي الى اختلاف القلوب . أما خالد فمع أنه قد سلم القيادة العامة الى أبي عبيدة كيلا يجرح وجاهة الخليفة عند عامة الجند ، لأن أمر العزل كان قد شاع ، فانه استمر في قيادة المعركة على الترتيب الذي كان قد وضعه . وفي هذه المناسبة قال خالد قوله المشهور : أنا لا أحارب من أجل عمر !

مجرى المعركة

أقام خالدٌ الجيش على مرتفعٍ جَنوبَ نهر اليرموك ، أحَد روافد نهر الأردُنّ ، وجعل ظهره الى الصحراء حتى يستطيع النجاة اذا اضطر الى التراجع أمام البيزنطيين . بعدئذ أطمع الجيش البيزنطي بأن يقطع النهر الى حيث يقف العرب . فلما قطع الروم النهر وتوغلوا قليلاً ، أمر خالدُ بن الوليد عمروَ بن العاص بأن يقطع بالجيش الذي تحت امرته النهر من الضِفة الجنوبية الى الضفة الشمالية محاولاً أن يقطع خط الرجعة على الروم . وخاف الروم مغبّة ذلك ، فحاولوا العودة من الضفة الجنوبية الى

الضفة الشمالية . عندئذ أمر خالد الجيشين الباقيين (وكانا بقيادة أبي عبيدة وقيادة يزيد بن أبي سفيان) بأن يتتبعا الجيش الرومي المنسحب . وهكذا تقطع الجيش الرومي غرقاً في النهر أو قتلاً على أحدى الضفتين (رجب ١١ سنة ١٥ = ٢٠ آب ٦٣٦) .



وكان من العوامل التي انتصر بها العرب على الروم في معركة اليرموك وحدة كلمة العرب واختلاف كلمة الروم : لقد كان عدد جيش العرب قريباً من عدد جيش الروم ، وان كان الشائع أن جيش الروم كان أكبر من جيش العرب أضعافاً مضاعفة . غير أن العرب (وكانوا نحو خمسة

وعشرين ألفاً) كانوا مُوحدّي الكلمة ، وطيدي الايمان بالنصر ، يحاربون ايماناً واحتساباً ويطلبون الشهادة في سبيل الله. أما الروم فكانوا ثلاثين ألفاً أو يزيدون ، ولكنهم كانوا أجناساً مختلفة من الروم والعرب والأرمن. وكان قسم كبير من الجنود مقيداً بالسلاسل خوف الفرار. ولما لاح النصر في جانب العرب انحاز أهل الشام (من العرب) من الجانب الرومي الى جانب اخوانهم العرب على اختلاف بينهم في الدين. أما الآراميون من أهل الشام (سورية) فقد استقبلوا العرب بالترحيب هرباً من ظلم الروم لهم ومن الاضطهاد الديني الذي كان سائداً في الامبرطورية البيزنطية كلها.

وكان لمعركة اليرموك أهميتان أساسيتان : أولاهما أنها فتحت ، بالقضاء على الجيش الرومي ، طريق سورية أمام العرب فلم يبق ثمت خط دفاع شمالي آخرُ قبل الدّرب (مضيق بيْلان في جبال طوروس ، على تخوم بلادَ الروم — آسية الصغرى). وأما الأهمية الثانية فهي أن تلك المعركة دلت على مقدرة العرب في الحروب الخارجية كما كانت معركة بدر قد دلت على مقدرتهم في الحرب المحلية.

مشكلة فتح دمشق

في المصادر وفي كتب التاريخ أشارات الى أن دمشق فتحت مرتين ، وفيها نزاع حول فتحها َعنوة أو سلماً. والواقع أن العرب كانوا قد فتحوا دمشق وحمص وسواهما، قبل أن يخوضوا معركة اليرموك، عنوة. فلما وجد خالد أن لا بدّ من معركة كبيرة يقضي فيها على الجيش الرومي (البيزنطي) ، وأن اليرموك كان أفضل مكان لها ، سحب الجيوش من كل مكان وأخلى المدن التي كان العرب قد فتحوها قبل ذلك. فلما انتصر العرب على اليرموك وقضَوْا على الجيش الرومي وانسحب هِرَقْل امبرطور الروم بفلول جيشه الى آسية الصغرى عاد العرب فدخلوا المدن التي كانوا قد أخلوها ثم دخلوا سائر مدن الشام من غير أن يلقَوْا مقاومة.

عودة الفتح الى العراق

في هذه الأثناء كان الجيش العربي في العراق بقيادة المثنى بن حارثة يقف في وجه الفرس وينازلهم بقدر. وقد انهزم العرب في معركة الجسر (شعبان ١٣ هـ = تشرين الأول ٦٣٤) وجرح المثنى فيها. ثم انتصروا في الشهر التالي في معركة البُويب. وبعد بضعة أشهر توفي المثنى (صفر من سنة ١٤ هـ = نيسان ٦٣٥) من الجراح التي كانت قد أصابته يوم الجسر.

ويتولى قيادةَ الجيش العربي في العراق سعدُ بن أبي وقّاص، وتدور معركة القادسية بين العرب والفرس ثم تنجلي (في آخر ربيع الاول من سنة ١٦ = آخر أيار ٦٣٧) عن انتصار عظيم للعرب بعد خسائر جسيمة من العرب والفرس معاً. وكما فتحت معركة اليرموك أبواب الشام أمام العرب، فان معركة القادسية فتحت أمامهم أبواب العراق.

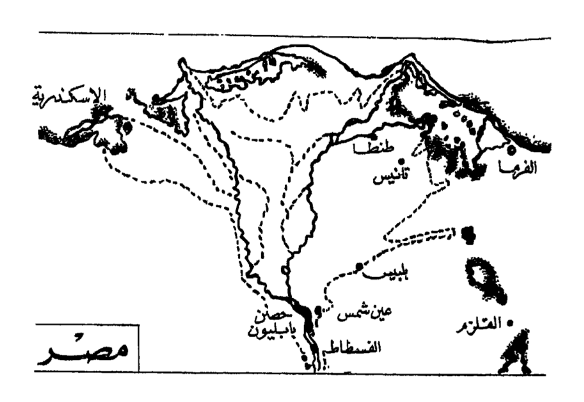
فتح القدس

بعد اليرموك اتّجه عمرو بن العاص جنوباً يفتح البلدان حتى وقف عند أسوار القدس. وأدرك بطريرك القدس صفرونيوس أن العرب سيفتحون المدينة لا محالة، وأن دفاع الروم عنها لا يَعْني الا الخرابَ والدمار وبقاء الظلم والعسف. ويبدو أن صفرونيوس كان من القائلين بالطبيعتين بخلاف الامبرطور هرقل الذي كان يريد جمع البيزنطيين على القول بأن الطبيعتين الالهية والبشرية قد اتحدتا في المسيح وأصبحتا طبيعة واحدة. ثم ان انتصار المذهب الملكي في فلسطين، مذهب هرَقْل الملك، يشد أزر اليعاقبة القائلين في الأصل بالطبيعة الواحدة ويضعف طائفة النساطرة التي ينتمي اليها صفرونيوس.

كل هذه العوامل دفعت صفرونيوس الى تسليم القدس الى العرب سلماً، على أن يأتيَ الخليفة عمر بن الخطاب شخصياً لتسلّمها. وأدرك الخليفة أن ذلك يحقن دماء العرب أيضاً، فجاء هو نفسه الى القدس وتسلّمها صلحاً.

الفتح في مصر

ولما استسلمت القدس تابع عمرو بن العاص مسيره نحو مصر فاستولى على الفَرَما في أوائل سنة ١٩ للهجرة (أوائل عام ٦٤٠ م)، ثم انحدر جنوباً في غرب الى بُلْبَيْس ومنها الى عين شمس (شمال شرق القاهرة اليوم) حيث تقطع الجيش الرومي.



بعدئذ اندفع عمرو بن العاص بعشرين ألفاً نحو الاسكندرية عاصمة مصر، وكان يحميها خمسون ألفاً من الروم وأسطول وفير العدد من السفن. من أجل ذلك طال وقوف العرب على الاسكندرية، من غير أن يتوقفوا عن الفتح في سائر أرض مصر. ولقد فتح العرب الاسكندرية صلحاً سنة ٢١ للهجرة (عام ٦٤٢ م) ثم عاد الروم فاستردوها. وبعد أربع سنوات فتح العرب الاسكندرية نهائياً واطمأنت مصر كلها في حكمهم العادل.

معركة نهاوند

وفي سنة ٢١ هـ (٦٤٢ م) وقعت معركة نَهاوَنْد بين العرب والفرس، في فارس نفسها، فانتصر فيها العرب. وكانت معركة نهاوند بالاضافة الى فارس كاليرموك بالاضافة الى الشام، والقادسية بالاضافة الى العراق.

مدى الفتوح

في هذه الاثناء كان العرب قد فتحوا الشام كلها والعراق ومعظم بلاد فارس، وكانت الاسكندرية قد استسلمت لهم. أما فتوح العرب في ما يلي الاسكندرية غرباً فموضعه في مكان آخر، في كتاب آخر[1]، ان شاء الله.

أعمال عمر بن الخطاب

أقام عمر بن الخطاب الدولة الاسلامية بكل ما يتصل بها. ولعلنا اذا ذكرنا اليوم الدولة الاسلامية لم نجد لها مثالاً في التاريخ كله، مثالاً صحيحاً واضحاً، الا في خلافة عمر بن الخطاب. ان عمر بن الخطاب كان منظم الدولة في الاسلام. فمن أعمال عمر المتعلقة بالدولة مباشرة أو غير مباشرة، من قرب أو من بعد، ما يلي:

(آ) أجلى عمر أهل الكتاب عن بلاد العرب: أجلى النصارى عن نجران التي في أواسط بلاد العرب، وأجلى اليهود عن خيبر (قرب المدينة)، وأخرجهم من شبه جزيرة العرب الى الشام بعد أن دفع لهم ثمن أملاكهم تامة. ويعزى عمل عمر هذا الى أنه أراد أن يجعل بلاد العرب، وهي مهد الاسلام، خالصة للمسلمين.

(ب) رفع الجزية عن بني تغلب — الاسلام دين دعوة: أما العرب فلم يقبل منهم الا الاسلام، كما يظهر من سورة براءة. وأما أهل الكتاب، من غير العرب، فهم أهل ذمة يتمتعون في الدولة الاسلامية بجميع الحقوق

(١) راجع «العرب والإسلام في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط» المؤلف.

والامتيازات ما عدا الخلافة والقضاء والجندية (لأن الحرب في الاسلام جهاد لنشر الدعوة في الدرجة الأولى) ؛ وذلك في مقابل جزية مقطوعة تتراوح ما بين دينار واحد وأربعة دنانير في العام عن كل قادر على أدائها ، مهما بلغت ثروته.

ولقد كان لبني تَغْلِبَ حال خاصة بهم ، فقد كان كثير من بني تغلب في العراق على النصرانية ، ولكنهم ساعدوا العرب عه الفرس في معركة القادسية. من أجل ذلك سمح عمر لمعاصريه من بني تغلب بالبقاء على النصرانية ، أما أولادهم فكان يجب أن ينشأوا على الاسلام. ثم ان عمر رفـع عن أولئك المعاصرين له من نصارى تغلب الجزية وأوجب عليهم الزكاة (اثنين ونصفاً بالمائة من المال المجموع في العام) ولكن جعلها عليهم مضاعفة (خمسة بالمائة).

(ج) تمصير البصرة والكوفة (١٧ هـ = ٦٣٨ م) : لما تولى عمر الخلافة وجد أن النزاع على الخلافة لم يهدأ فأراد أن يعيد الهدوء الى المدينة. فبعد أن بنى البصرة والكوفة لتكونا معسكرين أخرج شيعة بني هاشم من المدينة وأسكنهم الكوفة ، وأخرج خصومهم وأسكنهم البصرة. هذا العمل جعل الكوفـة والبصرة جبهتين متعاديتين في خلافة عثمان وعلي ، ثم مركزين للفتن والقلاقل في أيام بني أمية خاصة.

(د) تنظيم الفتوح والامبرطورية : كانت سنة ١٨ هـ (٦٣٩ م) سنة قحط حتى سمي عامها عام الرَّمادة (تحولت فيه الأرض الى لون الرماد من شدة القحط). وفي خريف تلك السنة نفسها وقع الطاعون في قرية عمواس (قرب القدس) فذهب فيه عدد كبير من الناس والجند فيهم أبو عبيدة ويزيد بن أبي سفيان. فزار عمر بن الخطاب منازل المسلمين في الشام وعقد مؤتمراً في الجابية (قرب دمشق) لاعادة تنظيم الجيش والبلاد. وقد جعل عمر معاوية بن أبي سفيان والياً على الشام مكان أخيه يزيد. ولكن معاوية سلك سبيلاً جديداً وأخذ يُعِدُّ الشام ويتألف أهلها ليستقل بها في المستقبل. ومع أن هذه الغاية لم تتضح منذ أول الأمر ، فان بني هاشم عدوا تولية معاوية على الشام انتصاراً

صريحاً من عمر للامويين وتحدّيــاً لهم . ومنذ مؤتمر الجابية أصبح غــربي الامبرطورية (الشام) تابعاً في الأدارة لمعاوية ، وأخذ معاوية يُهَيِّىءُ الشام لتكون مركزاً له ولأهله .

(هـ) الادارة خاصة : ترك عمر الادارة في الشام على ما كانت عليه في أيام الروم (البيزنطيين) . وكانت الشام مقسومة مناطق عسكرية تسمى الاجناد على الصورة التالية (من الجنوب الى الشّمال) .

— جُند فلَسطين (من رفح الى جنوب الناقورة) ، وعاصمته القدس .

— جند الأُرْدُنّ (منطقة بحيرة طبرية وحوض نهر اليرموك) ، عاصمته طبرية .

— جند دمشق وهو اكبر الأجناد مساحة وأهمية (من جنوب صور الى شمال طرابلس) ، عاصمته دمشق .

— جند حمص (يضم مناطق حمص وحماه واللاذقية) ، عاصمته حمص .

— جند قِنّسرين (يضم مناطق قنسرين وحلب وانطاكية) ، عاصمته قنسرين ، (وهو متأخر النشأة) .

وكان قائد الجيش يتولى عادة الحكم السياسي والأداري فيكون الأمير (الإمام في الصلاة والحاكم والقاضي) . أما الادارة الماليــة فكان يقوم بها شخص مستقل يدعى « العامل » . ولقد استقرت الادارة الاسلامية في أيام أبي بكر وعمر وعمّ الأمن لسببين : أما في البادية فلرغبــة البدو في العطاء الذي كانوا ينالونه من الدولة ثم لاشتغالهم بالفتوح عن النزاع الداخلي . وأما في القرى (المدن والارياف) فلأن أهل الكتاب خضعوا للدولة الإسلامية برضاهم ، إذ كانوا فرحين بتخلصهم مى ظلم الروم واستبدادهم . لقد أصبح الرومي يتمتع بالاطمئنان على نفسه وماله ثم يقوم بعبادته بحرية لم يتمتع بمثلها في أيام الحكم البيزنطي .

(و) الجيش والغنائم : كان الجيش الاسلامي يتألف من مجموع الأمــة الاسلامية ، وكان الجهاد فريضة على كل مستطيع . أما الجيش فكان يقوم

على الأساس الروماني ، وكان يدعى « الخميس » لأنه يتألف من خمسة أقسام هي : القلب (أي الجزء الأوفر من الجيش) ثم المقدمة والميمنة والميسرة والمؤخرة . ثم تأتي وراء المؤخرة « الساقة » ، أي الوَحَدات التابعة للجيش (لاعداد الطعام واصلاح الأسلحة ولوسائل النقل وما إلى ذلك) .

وأمر عمر بأن تبنى معسكرات خاصة للجيش كيلا ينزل الجنود في المدن بين أهل البلاد المفتوحة فتفتر حميَّتهم . وكذلك منع عمر الجنود من الزواج بأهل تلك البلاد وسمح لهم بأن يعودوا كل أربعة أشهر مرة الى أهلهم أو أن يحملوا أهلهم معهم .

وأما غنائم الحرب فالاراضي والعقارات تكون ملكاً للدولة أو للجماعة الاسلامية وتسمى الفيء . وأما الاشياء المنقولة (كالأموال والأشياء والأشخاص الأسرى) فالخمس منها كان يذهب الى بيت المال ، والاخماس الأربعة الباقية كانت توزع على المحاربين الاحياء بعد كل معركة .

(ز) بيت المال (وهو يشبه وزارة المالية اليوم) وكان يتغذى بالمصادر التالية

ـ الخمس (خمس الغنائم الحربية) .
ـ الفيء (الاراضي التي يحتلها الجيش) .
ـ الخراج (الضريبة على الاراضي التي يملكها الأفراد) .
ـ الجزية (التي يدفعها أهل الكتاب عن أنفسهم شخصياً) .
ـ الزكاة (التي يدفعها المسلمون على أموالهم المجموعة وبيوعاتهم) .

ويجب ان نلاحظ ان الانواع الأربعة الاولى تنفق في ادارة الدولة ومصالحها.

أما النوع الخامس (الزكاة) فينفق على الأشخاص المحتاجين فقط ، ولا يجوز ان تبنى منه أبنية (ولو كانت مدارسَ أو مساجد) ولا ان يدفع منه رواتب للموظفين (الا الموظفين الذين يتولَّوْن جمع الزكاة وتوزيعها) .

(ح) الديوان (سجلات الحكومة) : أوجد عمر الديوان في الاسلام (نقلاً عن الفرس) لاثبات دخل الدولة الاسلامية ووجوه انفاق ما في بيت المال في مرافق الدولة المختلفة . وكان في الديوان أسماء مستحقي العطاء من

الجنود المحاربين وابناء الجنود الذين قتلوا في سبيل الله وأهل بدر خاصة . ثم فيه أسماء المستحقين للعطايا من ورثة أهل بيت الرسول ومن المهاجرين والأنصار وورثتهم أيضاً .

(ط) اللغة الرسمية : اصبحت اللغة العربية هي اللغة الرسمية للبلاد الإسلامية مع أن الفهلوية (الفارسية القديمة) والرومية والقبطية ظلت لغات دواوين بعد ذلك مدة غير يسيرة .

(ك) انتشار العرب في الارض : خرج العرب الى الشام والعراق ومصر وفارس واستقروا هنالك فأدى ذلك الى نشوء حياة اجتماعية جديدة . أخذ العرب من البلاد المفتوحة أسباب العيش المادي كالسكنى والطعام واللباس وآداب السلوك ، وتزوجوا من بنات الامم الأخرى . أما البلاد المفتوحة فأخذت من العرب الدين واللغة والثقافة العربية .

٤ ــ مكتبة الاسكندرية : يزعم بعضهم ان عمر بن الخطاب أمر بأحراق مكتبة الاسكندرية اليونانية محتجاً بأنه إذا كان فيها ما يوافق القرآن ففي القرآن غنى عنه ، واذا كان فيها ما يخالف القرآن فلا حاجة اليه . والذي ثبت اليوم ان هذه المكتبة كانت قد تلفت بعوامل مختلفة قبل أن يفتح العرب مصر .

(ي) أمر عمر بن الخطاب أن تُتخذ هجرة الرسول الى المدينة (٦٢٢م) مبدأ التقويم الهجري (٦٢٢م = ١ هـ) .

مقتل عمر و الشورى

نقم الروم والفرس على عمر بن الخطاب لأنه قوّض أركان امبراطوريّتَيْهم ، فدبروا مقتله . أما الروم فلم ينجحوا . وأما الفرس فنجحوا ، اذ طعن أبو لؤلؤة الفارسي عمر بن الخطاب في صلاة الصبح في ٢٦ من ذي الحجة من سنة ٢٣ (٣ تشرين الثاني ٦٤٤) . ولم يصدق عبد الله بن عمر بن الخطاب أن أبا لؤلؤة مولى المغيرة قد قتل والده عمر من عند نفسه ، بل اعتقد أن الدافع إلى ذلك انما كان الهرمزان فقتله . وقد قال الحطيئة الشاعر ، وكان معاصراً

لهذا الحدث العظيم :

أتحصر قوماً أن يجودوا بمالهم ؟ فلا قتيل الهُرْمزان تحاصره !

ولم يشأ عمر أن يعين خليفة بعده ، ولا أراد أن يترك المسلمين يختلفون فيما بينهم . من أجل ذلك اختار ستة نفر من كبار الصحابة (من رؤساء الأحزاب ومن المتطلعين الى الخلافة) هم عثمان بن عفّان الأموي ، وعلي ابن أبي طالب الهاشمي ، والزُبير بن العوّام ابن عمة الرسول ، وطلحة بن عُبيد الله أحد سَراة المدينة ووجوهها ، وسعد بن أبي وقاص فاتح العراق ، وعبد الرحمن بن عوْف أحد أغنياء المهاجرين . وقد ضم عمر الى رجال الشورى هؤلاء ابنه عبد الله على ألا يَنتخبَ ولا يُنتخب ، ولكن يُستطلع رأيه اذا اختلفت الآراء ، ويكون رقيباً على أهل الشورى ومنفّذاً لما يجمعون عليه .

وقد أوصى عمر رجال الشورى أن يختاروا واحداً منهم للخلافة في مدى ثلاثة أيام . واذا انقسمت الآراء (ثلاثة ضد ثلاثة) فالخليفة هو الذي يسميه الثلاثة الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف . أما اذا لم يستطع رجال الشورى أن يختاروا واحداً منهم في المدة المسماة ، فان عبد الله بن عمر يَضرب حينئذ أعناقهم ثم يترك الأمر شورى بين المسلمين .

وتعقدت الأمور كثيراً ، فان الزبير وطلحة وعثمان وعلياً كانوا يتطلعون الى الخلافة تطلعاً شديداً . وأخيراً اقترح عبد الرحمن بن عوف أنه يُحقّ للذي يتخلى عن حقه في الخلافة أن يسمي الخليفة المقبل ، فلم يشأ أحد أن يفعل ذلك . عندئذ أعلن هو أنه يتخلى عن حقه في الخلافة ثم تقدم الى اختيار الخليفة . وقد رأى عبد الرحمن أن أقوى العصبيات في المدينة عصبية المهاجرين : بني هاشم وزعيمهم علي ، ثم عصبية بني أمية وممثلهم عثمان . وعرض عبد الرحمن الخلافة على علي على أن يسير بسيرة الشيخين أبي بكر وعمر ، فلم يقبل علي لأنه كان يعتقد أن هذين قد حالا بينه وبين حقه في الخلافة منذ وفاة الرسول . حينئذ عرضها على عثمان بعد أن اشترط عليه ما اشترط على علي فقبل عثمان . وهكذا انتخب عثمان خليفة وخرج علي والزبير وطلحة غاضبين .

عصر الخلفاء الراشدين

الدور الثاني: الأزمة السياسية في الاسلام

كانت الأزمة السياسية في الاسلام «نزاعاً على الخلافة» بين بني هاشم وبين بني أمية . هذا النزاع بدأ منذ الجاهلية وبلغ ذروته في أيام عثمان وأيام علي ثم انتهى باستيلاء معاوية بن أبي سفيان على الخلافة .

بدأ العداء الداخلي في قريش قبل الاسلام ، وكان عداء اقتصادياً :

كان لعبد مَناف بن قُصَيّ ولدان: عبد شمس وهاشم . ولقد اتفق انّ حال هاشم رقّتْ فاستبد عبد شمس بالتجارة ، ثم استبد ابنه أمية بالحرب أيضاً . وهكذا أصبحت السيادة العسكرية والمالية في بني عبد شمس . ومن أجل ذلك اضطر هاشم ثم ابنه عبد المطلب الى ان يكتفيا بالتكسب من التجارة المحلية في أيام المواسم (بالسقاية والرفادة : أي اسقاء الناس وأطعامهم في مواسم الحج) .

هذا التفاوت بين الأخوين هاشمٍ وعبدِ شمس أدّى الى ما يلي :

(١) قَوِيَ فرع عبد شمس (والد أمية) اقتصادياً وعصبياً ، بينما هاشمٌ وآله من بعده أخذوا يضعفون من هذه الناحية .

(٢) ان انصراف آل هاشم الى السقاية والرفادة (وهما متعلقتان بالكعبة ، وبالتالي بالناحية الدينية من حياة قريش) جعل آل هاشم يتجهون اتجاهاً دينياً فيه كثير من الوفاء والمُثُل العليا ، بينما اتجه بنو عبد شمس (بحكم اتصالهم بالتجارة والحرب) اتجاهاً دنيوياً مادياً .

(٣) ان هذا التفاوت هو الذي خلق النزاع بين الفرعين القُرَشيين : فرعِ بني هاشم وفرع بني عبد شمس . ولقد كان هذا النزاع ينشَب (فيما بعد) كلما

سنحت له فرصة عند انتقال الخلافة من شخص إلى شخص ، أو كلما حدث خلاف حزبي أو شخصي (كالنقمة على عثمان بن عفان وحرب الجمل) .

المظهر الاساسي للنزاع الهاشمي - الاموي

لما ظهر الاسلام كان بنو هاشم ضعفاءَ اقتصادياً وعصبياً أيضاً ، بينما كان بنو أمية اقوياء جداً . من أجل ذلك كان كل تبديل في حياة قريش السائدة يومذاك يضر بني أمية حتماً ، وقد ينفع بني هاشم . فلم يكن مـــن المستغرب اذن ان يسرع بنو هاشم الى اعتناق الاسلام وأن يقاوم بنو أمية الاسلام ما استطاعوا الى ذلك سبيلا . وأخيراً عمّ الاسلام شبه جزيرة العرب ولم يجد بنو أمية مندوحة لهم عن الدخول فيه . ولكنهم دخلوا وهم أقوياء يحاولون الاحتفاظ بجميع الامتيازات التي كانت لهم قبل اسلامهم . ولقد استطاعوا ذلك لمكان ثروتهم وعصبيتهم واتجاههم الدنيوي المادي الذي تعوّدوه منذ جاهليتهم .

الا ان هذا أغاظ بني هاشم : كان بنو هاشم يَرَوْن (وهم الذين نصروا الاسلام وجاهدوا في سبيله) أنهم يُقْصَوْنَ عن الحكم شيئاً فشيئاً ليَحِلّ مكانهم بنو امية (الذين لم يدخلوا الاسلام الا متأخرين ، وبعد انِ اضطُروا الى ذلك) :

١ - توفي الرسول فلم يكن خليفته هاشمياً .
٢ - وتُوُفّيَ ابو بكر بعد أن أوصى لعمر بن الخطاب ؛ وهو غير هاشمي .
٣ - ولما توفي عمر لم يظفر بنو هاشم بالخلافة وظفر بها خصومهم بنو امية .

نشوب الازمة السياسية

ومعَ مجيء عثمان بن عفان الى الخلافة عاد النزاع صريحاً بين بني أمية وبني هاشم ، ذلك لأن عثمان بن عفان نفسَه كان ضعيفاً ؛ وكان فوق ضعفه سيء التصرف في تعيين الولاة وإنفاق الأموال كثير الاستنامة لمشيئة بني أمية . ثم أن بني هاشم قَوُوا وكثر اتباعهم : إما اقتناعاً بحقهم في الخلافة ، أو التفافاً

حولهم كرهاً بسياسة عثمان . ولكن اولئك الذين التفوا حول بني هاشم كانوا يطلبون الخلافة لأنفسهم ، وكانوا يرون ان وجود بني أمية على سدّة الخلافة مانعاً لهم من الوصول اليها . لذلك اتفقوا كلهم على محاربة بني أمية وخلع عثمان ، ولكن لم يتفقوا على الذي يجب ان يخلفه .

في خلافة عثمان (منذ المحرم ٢٤ هـ= تشرين الثاني ٦٤٤ م) .

تلك كانت الحالة النفسية القلقة التي سادت بلادَ الدولةِ الإسلامية لما جاء عثمان بن عفان الى الخلافة .

استمرار الفتوح في البر

(شرقاً) : أخضع العرب بلاد فارس من جديد ثم أخذوا يتوغلون في بلاد الترك ، شَمال غرب فارس . ولكن سَرعانَ ما توقف الفتح للنفور الذي نشأ بين أهل العراق (الكوفة) وبين أهل الشام . كان خط الفتح الشرقي يمرّ من الشام الى العراق (الكوفة) الى المشرق ، فلم يكن بُدٌّ من أن يكون الجيش مختلطاً من أهل الشام وأهل العراق . وقد كان الجنود الشاميون (وهم أتباع معاوية وعصبية بني أمية) يرفضون أن يعملوا تحت إمرة أهل الكوفة ، كما كان أهل الكوفة (وهم شيعة آل هاشم) لا يذعنون لإمرة الشاميين .

(غرباً) : كان سير الفتح في الغرب أسرع ، لأن الفتح في الغرب كان يتجه من الشام رأساً ، وكانت الجيوش التي تَفْصُل من الشام شامية (سورية) خالصة ، أو مؤلفة من شاميين ومن أنصار لبني أمية . وكان هذا الخط الغربي نفسه فرعين : فرعاً شَمالياً يتجه الى بلاد الروم (آسية الصغرى) ، وفرعاً جنوبياً يسير مع الساحل الافريقي على البحر الأبيض المتوسط نحو طرابلس الغرب وتونس وما وراءهما .

ومما يَلفِت النظرَ أن العرب لم يحاولوا أن يستقروا في بلاد الروم ، بل كانت غزواتهم اليها لتحطيم قوى العدو كيلا يستطيع هو أن يغزوَ البلاد العربية بنجاح . ان تاريخ الغزو بين العرب والروم عبر الدّرب (مضيق بيلان في

جبال طوروس) كان معارك متفرقة واحتلالاً عارضاً لعدد من القلاع في المناطق القريبة من التخوم على الجانبين ، تسقط مرة في أيدي العرب ومرة في أيدي الروم . فقد وصل العرب في سنة ٢٥ هـ (٦٤٦ م) الى البحر الأسود ، ثم وصلوا بعد ذلك مراراً الى أطراف القسطنطينية من غير أن يستطيعوا احتلالاً أو استقراراً في مكانٍ ما وراء الدرب . أما على الساحل الافريقي فالأمر كان مختلفاً : لقد ثبت العرب في كل مكان نزلوه ثم حالوا بين الروم وبين الرجوع اليه ، مما سنقص حديثه بالتفصيل في غير هذا المكان .

سياسة عثمان الادارية

كان عثمان ، من الناحية العملية ، يمثل قومه بني أمية في الخلافة . وكان زعيم بني أمية الحقيقي معاويةُ بن أبي سفيان ، والي الشام منذ أيام عمر . أما مروان بن الحكم شيخ بني أمية فكان كاتباً لعثمان ، ولكنه كان لا يخرج عن رأي معاوية . ومع مجيء عثمان الى الخلافة كثر بنو أمية في مناصب الدولة . ففي أوائل سنة ٢٤ هـ (أواخر ٦٤٤ م) عزل عثمان المُغيرة بن شُعبة عن الكوفة وولّى مكانه سعد بن أبي وقّاص . ثم عزل سعداً وولّى مكانه الوليد ابن عُقْبة أخاه من أمه . وصلى الوليد مرة صلاة الصبح وهو سكران فأضطر عثمان إلى عزله ، وقد ولّى مكانه أحد أقاربه سعد بن العاص ، وكان شاباً لا تجارب له . وكان على البصرة أبو موسى الأشعري منذ أيام عمر ، فعزله عثمان وولّى مكانه (سنة ٢٩ هـ = ٦٥٥ م) ابن خاله عبد الله بن عامر ، وله من العمر خمس وعشرون سنة . واستبد عبد الله بن عامر بالعراق وفارس وعين فيهما رجاله . وقد اشترك ابن عامر ، فيما بعد ، في الفتنة التي قتل في أعقابها عثمان . وفي أثناء ذلك كان عثمان قد عزل عمرو بن العاص عن مصر وولّى مكانه عبد الله بن أبي سَرْح ، أخاه من الرضاعة .

الفتح في البحر : معركة السواري

كان عمرو بن العاص قد استشار عمر بن الخطاب في ركوب البحر فلم يأذن عمر له . فلما تولّى عثمان خاطبه معاوية بن أبي سفيان في ذلك فأذن له . وفي عام ٢٨ هـ (٦٤٩ م) أنزل معاوية أول عمارة (أسطول) الى البحر وجعل أبا قيس عليها «أمير الماء» (ومنها اللفظة الافرنجية : أميرال) . وفتح معاوية في تلك السنة جزيرة قبرس ثم صالح أهلها على ٧٢٠٠ دينار في العام ، وعلى أن يقفوا على الحياد بينه وبين الروم. وقد أعاد معاوية الكرة على قبرس (٣٣ هـ = ٦٥٣ م) وفتحها عَنوة .

وأراد الروم الانتقام لقبرس فهاجموا الاسكندرية سنة ٢٥ هـ ، ثم هاجموها مرة أخرى (٣٤ هـ = ٦٥٥ م) بخمسمائة مركب أو تزيد . ولكن عبد الله ابن ابي سَرْح جمع لقتالهم أسطولاً فيه خمسمائة مركب أيضاً وهزمهم في عُرض الاسكندرية في معركة عرفت باسم معركة السواري (أو الصواري) لكثرة سواري السفن التي اشتركت فيها .

جمع القرآن للمرة الثانية

أراد عثمان بن عفان أن يعمل نسخاً من القرآن الكريم فعهد إلى زيد بن ثابت بأن يجمع له القرآن ، وكان زيد هو الذي تولّى جمع القرآن للمرة الاولى في أيام عمر . غير أن زيداً رتب السور في الجمع الثاني بحسب طولها ، على ما هو في المصاحف الى يومنا هذا . وأثار عبدُ الله بن مسعود القُرّاءَ (حَفَظة القرآن) ، فقد اتهم ابنُ مسعودٍ عثمانَ بن عفّان بتبديل ألفاظ القرآن ، لأن زيد بن ثابت لم يقبل عدداً من القراءات الشاذّة التي يرويها ابن مسعود . ولكن من المستحسن أن نعلم أن ابن مسعود كان والياً على الكوفة منذ أيام عمر بن الخطاب وكان عثمان قد عزله عنها .

نفي ابي ذر الغفاري

كان أبو ذَرّ الغِفاري صحابياً تقياً متقشفاً ، وقد هاله انغماس شبان

بني أمية في الترف فجعل يحمل عليهم . وكان أبو ذر يمثل في حملته على شبان بني أمية رأي الصحابة كلهم . ولكن عثمان ضاق صدراً بحملة أبي ذر ، بتحريض من شبان بني أمية ، فنفاه الى الرّبذة (في بادية نجد) فمات هنالك وشيكاً . فكان ذلك سبباً في ازدياد نقمة الناس على عثمان . ولم يغب وجه الحق عن عثمان فحظر عدداً من الملاهي التي كان شبان بني أمية مغرمين بها كالقمار . فأغضب عثمان هؤلاء من غير أن يستطيع دفع نقمة الناقمين عليه .

الفتنة ومقتل عثمان

واستغل هذه النقمة على عثمان رجل يهودي من اليمن اسمه عبد الله ابن سبأ ، ويعرف أيضاً بابن السوداء ، وجعل يؤلب الناس عليه منذ سنة ٣٢ هـ (٦٥٣ م) . ثم انه انتقل الى مصر وأخذ يراسل منها الناس في سائر الأمصار ؛ وكان يزعم لهم أن محمداً صلى الله عليه وسلم سيرجع . وكذلك كان يقول إن علياً ولي محمد ، وإن عثمان مغتصب ، وإن بني أمية مستبدون يعتقدون أن العراق بستان قريش (أي أنه طُعمة لهم) .

وأطلت الفتنة برؤوسها في الأمصار . أما عبد الله بن عامر فقضى على الفتنة في البصرة . وأما سعيد بن العاص فلم يستطع القضاء على الفتنة في الكوفة لأن النقمة في الكوفة كانت أشد ، ولأن الكوفيين كانوا في الأصل خصوماً ألدّاء للامويين ، ثم لأن سعيد بن العاص نفسه كان مستضعفاً . وهكذا نجد أن العدل الذي جاء به الاسلام في حركته الاجتماعية ذهبت به السياسة الأموية في سبيل السيطرة والحكم ، ذلك لأن الأمويين كانوا منذ الجاهلية تجاراً ينظرون أولاً إلى مصالحهم الشخصية المادية .

أما موقف الناس من عثمان فكان كما يلي : جميع المهاجرين كانوا خصوماً لعثمان (ما عدا حاشيتَه) . وكذلك جميع الأنصار كانوا له أعداءً (ما عدا بضعة نفر ، منهم زيد بن ثابت وحسان بن ثابت وكعب بن مالك وأبو أسيد الانصاري) ، ثم ان معظم أهل الأمصار كانوا في خصوم عثمان ،

وخصوصاً في مصر والكوفة والبصرة. وبرّر هؤلاء سخطهم على عثمان بأنهم لم ينتخبوه هم، وانما انتخبه نفر من المهاجرين (رجال الشورى الذي عينهم عمر بن الخطاب) استبدوا بالأمر دون جميع الناس. ونقم على عثمان نفر من رؤوس أهل المدينة: نقم عليه علي وطلحة والزبير، لأنهم كانوا يطمحون الى الخلافة ففاز عثمان بها دونهم. ونقمت عليه عائشة لأنها كانت تريد الخلافة لأخيها محمد. وكان من المنتظر أن يَخِفَّ معاوية لنصرة عثمان، وهو نسيبه ووليه، فلم يفعل. وكان معاوية يطمع في الخلافة، ولم يكن يرجو أن يصل اليها الا اذا زُحزح عثمان عنها.

وفي شوال من سنة ٣٥ (نيسان ٦٥٦) جاءت وفود الأقطار الى المدينة تتظاهر بطلب الاصلاح. وكان أشد الوفود وفد مصر. ويقال ان عثمان أرضى وفد مصر بأن كتب لهم كتاباً بعزل عبد الله بن أبي سرح وتولية محمد ابن أبي بكر على مصر. غير أن مروان بن الحكم، كاتب عثمان، كتب كتاباً الى عبد الله بن أبي سرح وختمه بخاتم عثمان يوعز فيه الى عبد الله بن أبي سرح بقتل محمد بن أبي بكر اذا وصل الى مصر. ولكن ابن خلدون يرى أن الكتاب الذي نسبوه الى مروان كان مزوّراً على مروان، وأن مروان لا يُظن به شيء مما قالوه فيه (المقدمة، بيروت ٣٨٦ — ٣٨٧). ولا ريب في أن القوم كانوا يريدون قتل عثمان كيف دارت الحال. وطال حصار وفود الامصار لعثمان وجدالهم إياه. ولقد خذل الناس عثمان: فعمرو بن العاص كان يحرض عليه علياً وطلحة والزبير في المدينة (ابن الأثير ٣ : ٦١ — ٦٣). وعائشة كانت تطوف بالناس وتقول: «أقتلوا نعثلاً[1] فقد كفر». وأما علي فذكر أنه وقف على الحياد (لا أقول لكم اقتلوه ولا أقول لكم لا تقتلوه). ولما استنجد عثمان بعلي وطلحة والزبير أرسلوا لحمايته أبناءهم ولم يأتوا هم.

---

(١) النعثل: الذكر من الضباع، الشيخ الاحمق، ويهودي كان بالمدينة، ورجل لحياني كان يشبه به عثمان (القاموس).

وفي ١٨ من ذي الحجة من سنة ٣٥ هـ (١٨ حزيران ٦٥٦ م) تسوّر القوم عليه جدار بيته وتولى قتلَه محمدُ بن أبي بكر. ومع أن المسعودي يحب أن ينفي التهمة عن محمد بن أبي بكر، فانه يروى لحسان بن ثابت ابياتاً في ذلك هي (مروج الذهب ١ : ٣٠٧) :

خذلتْهُ الانصارُ إذ حضر المو　تُ وكان ولاتَه الانصارُ.
مَنْ عَذيري من الزبير ومن طل　حةَ اذ جاء أمر له مقدار،
فتولىّ محمدُ بن أبي بك　رِ عياناً وخلفَه عمّـار!

ولحسان في ذلك أيضاً :

يا ليت شعري، وليت الطيرَ تُخبرني　ما كان شأنُ عليّ وابنَ عفّانا.
لتسمعُنّ وشيكاً في ديارِهمُ :　الله أكبرُ، يا ثاراتِ عُثمانا!

علي بن أبي طالب

ولم يكن في المسلمين يومذاك أليقُ بالخلافة من علي، فارادت الوفود التي كانت قد أمّت المدينة ناقمة على عثمان أن تبايعه. وحاول علي جُهْدَه أن يظل في معزِل عن الخلافة، بعد أن اضطربت أحوالها. ولكن الوفود حملته على قبول الخلافة حملاً. من أجل ذلك جاء إلى الخلافة ويداه مغلولتان بالمشاكل. وكانَ أولَ ما جَبَهَه من حرج الموقف أن أمسك عن مبايعته، في أول الأمر، نفر من الصحابة كطلحة والزبير.

وبدا لعلي، بعد أن قبل بتحمل أعباء الخلافة، أن يسير بالحزم ويؤدّي للخلافة حقها. ورأى علي أن يعزِل الولاة الذين لم يُقروا له بالطاعة وبدأ بالكتابة الى معاوية بعزله. ولكن معاوية كان قد وطّد حكمه في الشام وبسط نفوذه. ولذلك لم يقبل بأن يعتزل عمله ثم كتب الى الامام علي يطالبه بالاقتصاص من قتلة عثمان. ولم يكن معاوية حريصاً على دم عثمان، بل كان يريد أن يزيد في المشاكل التي تملأ يدي علي بن أبي طالب. ان الذين اشتركوا في مقتل عثمان كانوا كثاراً، كما كانوا ذوي وجاهة ونفوذ. ولما دخل قوم على علي

يطالبونه بمعاقبة الذين قتلوا عثمان قال لهم معتذراً (نهج البلاغة ٣٤٧) :
« يا إخوتاه ، لست أجهل ما تعلمون ، ولكن كيف لي قوة والقوم المُجْلبون (الضاجّون ، الثائرون) على حدّ شوكتهم ، يملكوننا ولا نملكهم .. فهل ترون موضعاً لقدرة على شيء تريدونه ؟ فاصبروا حتى يهدأ الناس .. »

وأخيراً عزم معاوية على محاربة علي ، ولكنه اراد ان يُضْعفه قبل ذاك ، على ما نعرف في تاريخ الحرب والسياسة ، فقد استطاع ان يثير بينه وبين طلحة والزبير وعائشة ام المؤمنين وزوج رسول الله حرب الجمل . وقال : ان ظفرت عائشة وأصحابها بعلي فقد كُفيت منافسته . وان ظفر علي بهـا وبأصحابها فانه سيظفر بهم بعد ان يخسر كثيراً من قوته وجنده . وهكذا كان ، فان المعركة انجلت يوم الخميس في العاشر من جُمادى الآخرة من سنة ٣٦ (كانون الاول ٦٥٦) عن عشرة آلاف قتيل من الفريقين اويزيدون .

ولم يمهل معاوية الإمام علياً طويلاً بعد معركة الجمل فبدأ بخلق المشاكل له في مصر ثم استولى عليها ، وكذلك استبد بالشام . ولم يَخْف على الامام علي ان الحرب واقعة بينه وبين معاوية لا مَحالة . ولكنه تعجل تلك الحرب ونقل عاصمته من المدينة المنورة — مدينة الرسول — في الحجاز الى الكوفة في العراق ليكون أقرب إلى الشام اذا نشبت الحرب .

وأخيراً التقى جيش معاوية بجيش الامام علي في صِفين قرب الكوفة (في ذي الحجة ٣٦ ، حزيران ٦٥٧) . وتذكر اكثر المصادر ان جيش معاوية كاد ينهزم ، فأشار عمرو بن العاص — وزير معاوية وأحد دهاة العرب — على معاوية بأن يرفع المصاحف على الرماح (قبل كما فعلت عائشة من قبلُ في معركة الجمل) ويدعو الى تحكيم كتاب الله في ما شَجَر بين المسلمين من الخلاف .

أدرك الامام علي ان تلك خدعة ، ولكن جنده ، الذين كانوا قد سئموا الحرب بعد قتال دام ثلاثة أشهر ، اضطرّوه الى أن يقبل بوقف القتال وبالتحكيم ، فوقف القتال . وأراد كل فريق ان يختار حكماً : فاختار معاوية

عمرو بن العاص وأراد الامام علي ان يختار عبد الله بن عباس لأنه كفوٌ لعمرو ابن العاص ، ولكن اصحابه أبَوْا ذلك لانهم كانوا يريدون رجلاً ألين من ابن عبّاس ليشتري لهم السلم بكل ثمن ممكن . ولذلك وقع اختيارهم على عبد الله بن قيس المعروف بابي موسى الأشعري ، وهو رجل طيب القلب ، يصفه ابنْ الطِقطقى[1] بأنه «كان شيخاً مغفلاً» .

وفي ١٣ صفر سنة ٣٧ اتفق ابو موسى وعمرو بن العاص على ان يحكّما القرآن في الخلاف الناشب بين المسلمين وكتبا بذلك « صحيفة » . وبعد ستة أشهر (رمضان ٣٧= شباط ٦٥٨) اجتمعا في اذرُح في شرقي الشام (سورية) ونظرا في أمر الخلاف واتفقا فيما بينهما على ان يخلعا علياً ومعاوية من الخلافة ويتركا الأمر شورى بين المسلمين يولّون عليهم من يشاءون . فقال حينئذ أبو موسى لعمرو بن العاص : تقدم فقل ذلك للناس . فقال له عمرو : بل تقدم أنت . فصعد ابو موسى المنبر وقال : « لقد بحثنا فلم نجد أجدر للمّ شعث هذه الامة من أن نَخلع علياً ومعاوية ونجعل الأمر شورى بين المسلمين . واني قد خلعتهما ، فاستقبلوا أمركم وولّوا من شئتم » .

عندها صَعِد عمرو المنبر وقال : « ان أبا موسى قد خلع صاحبه ، وانا أخلع من خلع وأثبت صاحبي – معاوية – فانه ولي ابن عفان والمطالب بدمه واحق الناس بمقامه » . فأنكر ابو موسى على عمرو ذلك وعدّه خدعة . ثم انصرف اتباع الامام علي ناقمين على ابي موسى ، وانصرف أهل الشام فرحين . وكان اولّ ما فعله معاوية بعد ذلك أن نادى بنفسه خليفة . وهكذا انقسم العالم الاسلامي بين خليفتين : الامام علي في الشرق ، في جزيرة العرب والعراق وفارس ، ثم معاوية في الغرب ، في الشام (سورية) ومصر .

كان جميع أهل الحجاز وأهل العراق وفارس يعتقدون ان الحق بجانب الامام علي وان معاوية أخذ الأمر خدعة ، ولكنهم كانوا – فيما يتعلق بالسياسة التي يجب ان ينهجها الامام علي تجاه معاوية – حزبين كبيرين .

---

(١) الفخري ، المطبعة الرحمانية بمصر ، ص ٦٧ .

أ) حزب سئم الحرب واكتفى بما أصيب به من القتل والبلاء فانطوى أصحابه على كره لمعاوية وأهل الشام ، ومضوا يجادلون عن حق علي من الناحية الدينية والشرعية . هؤلاء هم سكان المدن في الأغلب والذين أصبحوا فيما بعد « الشيعة » .

ب) حزب لم يشأ أن ينام على ضيم ، ولم ير في خدعة عمرو لابي موسى مبرّراً لان يقبل الإمام علي بما حدث ، فخاطب الامام علياً بكثير من الجرأة والتصلب وقال له : إما ان يكون معاوية أحقّ منك بالخلافة فاخلع نفسك منها واترك له الأمر كلّه ، وإما أن تكون انت صاحبَ الحق وهو المغتصب الظالم فسرْ بنا اليه نقاتله لنعيد الحق الى نصابه . هؤلاء هم سكان البادية في الأغلب ، وهم الذين « خرجوا » فيما بعد من جيش الامام علي فسمّاهم اعداؤهم « الخوارج » .

ولما لم يستطع الامام علي ان يأخذ برأي الخوارج ، لان الشيعة يومذاك لم يكونوا يرون القتال « بعد ان قتل في صفين من كل بيت في الكوفة قتيل او اثنان أو أكثر » ، عده الخوارج « كافراً » وجعلوه هو ومعاوية — فيما يتعلق بالخلافة — في منزلة واحدة ، ثم أخذوا يحاربونه .

مقتلــه

اجتمع[1] نفر من الخوارج بعد موسم الحج فتذاكروا أمر المسلمين فعابوهم وعابوا أعمالهم . ثم ذكروا إخوانهم من الخوارج الذين سقطوا قتلى في معركة النهروان بالبصرة في حرب الامام علي فترحموا عليهم وقالوا : لو شَرَيْنا (بعنا) أنفسنا في سبيل الله فقتلنا أئمة الضلال وأرحنا منهم البلاد والعباد وأخذنا بثأرَ اخواننا ! ثم تعاقدوا على ذلك .

فقال عبد الرحمن بن مُلْجم المُرادي : أنا أكفيكم علياً . وقال البُرَك

(١) مقاتل الطالبين للاصفهاني (المطبعة الحيدرية بالنجف ١٣٥٣ ﻫ) ص ١٧ — ٢٥ .

ابن عبد الله التميمي : انا أكفيكم معاوية . وقال عمرو بن بكر التميمي : أنا أكفيكم عمرو بن العاص . ثم أنهم تواثقوا على الوفاء بذلك ، وعلى ان يقوموا بعملهم هذا في ليلة واحدة : في ١٧ رمضان (سنة ٤٠ هـ) .

ثم جاء عبد الرحمن بن ملجم الى الكوفة واتصل بنفر من الخوارج واتفقوا على ان يكمنوا في الليلة المعينة في المسجد الجامع ، فاذا خرج الامام علي الى صلاة الصبح ثاروا به فقتلوه . وقد نفذ هؤلاء مؤامرتهم هذه ، فقتل الامام علي كرم الله وجهه (٢٤ كانون الثاني ٦٦١) . ولكن الاضطراب الذي أراد الخوارج ان يسكن بقتل الامام علي لم يسكن .

أما معاوية فانه جُرح ولم يقتل . وأما عمرو بن العاص فلم يخرج في ذلك اليوم إلى صلاة الصبح ، بل أناب عنه خارجة ، صاحب شرطته . وقد قتل خارجة خطأً .

خلفاء بني أميّة في الشام

(أ) الفرع السفياني

١ ــ معاوية	: والي سورية (١٥ هـ = ٦٣٧ م) نادى بنفسه خليفة في الشام . أخذ الأمر من الحسن بن علي (٤١ هـ = ٦٦١م) خليفة على العالم الاسلامي كله (٤١ هـ = ٦٦١)
٢ ــ يزيد بن معاوية	: تولى الخلافة في رجب ٦٠ = نيسان ٦٨٠ . كربلاء ١٠ المحرم ٦١ = ١٠ تشرين الاول ٦٨١ .
٣ ــ معاوية بن يزيد	: ربيع الاول ٦٤ = منتصف تشرين الثاني ٦٨٣.

(ب) الفرع المرواني

٤ ــ مروان بن الحكم	تولى الخلافة :	في ذي القعدة ٦٤ = حزيران ٦٨٤
٥ ــ عبد الملك بن مروان	= =	رمضان ٦٥ = نيسان ٦٨٥
٦ ــ الوليد بن عبد الملك	= =	شوال ٨٦ = تشرين الاول ٧٠٥
٧ ــ سليمان بن عبد الملك	= =	جُمادى الثانية ٩٩ = آخر شباط ٧١٥
٨ ــ عمر بن عبد العزيز بن مروان	= =	صفر ٩٩ = تشرين الاول ٧١٧

٩ — يزيد بن عبد الملك تولى الخلافة رجب ١٠١ = شباط ٧٢٠

١٠ — هشام بن عبد الملك = = شعبان ١٠٥ = كانون الثاني ٧٢٤

١١ — الوليد بن يزيد بن عبد الملك = = ربيع الثاني ١٢٥ = شباط ٧٤٣

١٢ — يزيد بن الوليد بن عبد الملك = = رجب ١٢٦ = نيسان ٧٤٤

١٣ — ابراهيم بن الوليد بن عبد الملك = = ذي الحجة ١٢٦ = تشرين الاول ٧٤٤

١٤ — مروان محمد بن مروان = = ٢٦ صفر ١٢٧ = ٧ كانون الاول ٧٤٤

— انتهت خلافته بسقوط الدولة الأموية ومبايعة ابي العباس السفاح في ١٢ ربيع الثاني ١٣٢ = ٢٨ تشرين الثاني ٧٤٩ م .

— قتل آخر ١٣٢ هـ = آب ٧٥٠ م .

دَوْلة بَني أمّيّة في الشّام

الفرع السُّفياني : تأسيس الملك في بني أمية

النزاع مع بني هاشم : خليفتان في الاسلام

معاوية بن أبي سفيان

ان مقتل علي بن أبي طالب أزاح منافساً قوياً من وجه معاوية ولكن لم يُنه النزاع بين بني أمية وبني هاشم ، فان الهاشميين سَرعانَ ما نصبوا الحسن بن علي خليفة مكان أبيه . ولكن الحسن لم يكن مثل أبيه ولم يكن كفؤاً لمعاوية . ولم يجد معاوية صعوبة في ازاحة الحسن من طريقه ، ذلك لأن الحسن لم يطلب للتنازل عن الخلافة اكثر مما كان في بيت مال الكوفة (نحو خمسة ملايين درهم) .

عام الجماعة

بعد هذا الاتفاق بين معاوية والحسن بن عليّ عادت الاقطار الاسلامية تحت حكم خليفة واحد ، تحت حكم معاوية بن أبي سفيان ، سنة ٤١ هـ (٦٦١ م) ، فسمّي هذا العام عام الجماعة ، ذلك لأن الحكم في الاسلام كان قد انشقّ في الاسلام بين عليّ ومعاوية بعد التحكيم في أعقاب معركة صفّين .

المصاعب التي ذللها معاوية

على أن الصعوبة الحقيقية التي واجهها معاوية كانت تتناول ما يلي :
(أ) استمالة الأقطار المختلفة ، ذلك لأن الشام وحدها كانت موالية لمعاوية

أما الحجاز والعراق وما وراءهما فكانت شيعة لآل البيت . وأما مصر فكانت مع عمرو بن العاص . ومع ان عمرو بن العاص كان موالياً لمعاوية ، فانه كان يطمع في الأمر لنفسه ، أو يرى نفسه حليفاً لمعاوية على الأقل ، لا تابعاً .

(ب) ايجاد ولاة يديرون هذه المقاطعات ويقبلون أن يقفوا الى جانب معاوية في نزاعه المقبل مع الاحزاب المختلفة .

ورأى معاوية ان يبدأ بالعراق فولى على الكوفة المُغيرة بن شُعبة ، وهو داهية (سياسي) مستعد أن يخدم كل انسان اذا اتفقت هذه الخدمة مع مصلحته الشخصية . ولقد كان المغيرة يعرف حال أهل العراق ، فقد كان تولى في أيام عمر ولاية البحرين وولاية البصرة ثم لعب في الفتنة بين علي وبين عثمان ومعاوية دوراً خطيراً . وانضم المغيرة الآن الى معاوية وأخذ يوقد ناراً بين الخوارج وبين الشيعة فيَشْغَل بعضهم ببعض ليتيح لمعاوية هدنة يثبّت بها ملكه في دمشق . وخدم المغيرة معاوية خدمة جليلة لما وصل بينه وبين زياد ابن أبيه (وكان زياد يتولى فارس من قبل الامام علي) ، وذلك سنة ٤٢ هـ (٦٦٢ م) .

وكان زياد من الاشخاص الذين لا يُستمالون بالمال أو الجاه (لأنه كان والياً على فارس كلها) . ولم يكن يرضيه الكلام المعسول وحده ، ولكنه مدخول النسب (اذ يقال ان أمه سُميّة كانت تتزيّن للرجال ، وانه هو ولد سفاحاً) . ورأى معاوية ان يستميل زياداً اليه بأن يمحوَ عنه هذا العار فاستدعاه اليه ثم «ألحقه بنسبه» (اعترف به أخاً له) بعد ان أعلن ان سمية قد حملت بابنها هذا من أبي سفيان بن حرب والد معاوية . ولقد أعد معاوية شهوداً شهدوا بأن أبا سفيان كان يزور سمية قبل الاسلام .

وفي سنة ٤٥ هـ (٦٦٥ م) جاء زياد والياً على البصرة من قِبَلِ معاوية وألقى خطبته البَتراء . ولما توفي المغيرة سنة ٥٠ هـ (٦٧٠ م) أضيفت الكوفة الى ولاية زياد . ثم ازدادت ثقة معاوية بزياد ، فأضاف معاوية اليه حكم فارس أيضاً ، وهكذا أصبح زياد بن أبيه يحكم القسم الشرقي من البلاد

الاسلامية كما كان عمرو بن العاص يحكم مصر وما وراءها . ولم يكن معاوية يتمرس الا بحكم الشام (سورية) وحدها . وقام زياد باصلاحات مختلفة منها اعادة بناء مسجد الكوفة وتبليط أرضه حتى لا تعفَّر فيه جباه المصلين (أو كيلا يستطيع الناقمون ان يلتقطوا الحجارة من أرضه اذا سجدوا ثم يرمون به الامام اذا قاموا من سجودهم) . ثم ان زياداً قضى على العصبية القبلية لما أبطل العادة البدوية القديمة بأن تُؤلّف كلّ قبيلة وحدةً عسكرية خاصة بها . وجعل زيادٌ جند البصرة أربعة أقسام يتألف كل قسم منها من ابناء القبائل المختلفة ثم جعل على كل قسم من هذه الاقسام قائداً موالياً لبني أمية .

الفتح في المشرق

بدأ العرب غزو السند منذ أوائل الدولة الأموية ، ثم غزاها في سنة ٤٤ هـ (٦٦٤ م) المُهلَّب بن ابي صُفْرة. ولكن الغزو المنظم هنالك بدأ في ولاية زياد بن أبيه على العراقيين (البصرة والكوفة) . ففي سنة ٥١ هـ (أول ٦٧١ م) ولي زياد بن أبيه الربيع بن زياد الحارثي على مقاطعة خُراسان وأمره ان يسيّر خمسين ألفاً من أهل البصرة والكوفة بعيالهم فيسكنهم خراسان ففعل . ومنذ ذلك الحين جعل العرب المتوطنون على تخوم السند يغزون تلك البلاد .

على ان لسياسة توطين العرب في خراسان سيئةً كبيرة : أن هؤلاء الذي أرسلوا الى خراسان كانوا يمنية وقيسية ، وكان أكثرهم شيعة لآل البيت . وظن زياد يومذاك أنه اذا أبعد هؤلاء عن مركز السياسة الأموية في العراق فقد أمن خطرهم على السياسة العامة (كما ظن عمرُ بن الخطاب من قبلُ لما أخرج حزب آل البيت وخصومهم عن المدينة الى الكوفة والبصرة) . والواقع أن زياد بن أبيه قد أتاح بعمله هذا لخمسين ألفاً من الناقمين على بني أمية أن ينظموا جهودهم ويوسعوا دائرة نفوذهم في مكان بعيد عن مراقبة بني أمية .

وتوفي زياد بن أبيــه يوم الثلاثاء في الرابع من رمضان ٥٣ (٢٣ آب ٦٧٣) وله من العمر ثلاث وخمسون سنة ، فخلفه على الكوفة عبد الله بن خالد بن أسِيد سنة ٥٣ هـ ، ثم الضحاك بن قيس الفِهري سنة ٥٥ هـ، ثم عبد الرحمن الثَقفي سنة ٥٨ هـ ، ثم النعمان بن بشير الانصاري سنة ٥٩ هـ . وأما البصرة فقد تولاها بعد موت زياد بن أبيه سُمُرة (بضمتين) ابن جُندب الفِزاري سنة ٥٣ هـ ثم عبد الله بن عمر بن غَيلان سنة ٥٤ هـ ثم أُعطيت لعبيد الله بن زياد بن أبيه سنة ٥٥ هـ . وكانت فارس مقسمة بين أبناء زياد بن أبيه . وقد بقي عبيد الله بن زياد على البصرة الى وفاته ، كما أنه تولى خراسان مدة . هذه التبدل الكثير للولاة على البصرة والكوفة يدل على أمرين : على اضطراب الأحوال في العراق وعلى اهتمام الامويين بالعراق .

ولا ريب في أن عبيد الله بن زياد كان والياً مقتدراً وكان من أنصار بني أمية الاوفياء ، ولكنه لم يكن مقتدراً كقدرة أبيه في الادارة ولا كانت لــه حكمة أبيه في تصريف الأمور وفي الوفاء لبني سفيان . على أن أثر هذين النقصين في عبيد الله لم يظهر في أيام معاوية ، بل في أيام يزيد .

الصوائف والشواتي

كان للعرب منذ العصر الاموي غزوتان في كل عام الى بلاد الروم ، في العادة : احداهما في الصيف تسمّى « الصائفة » ، والثانية منهما في الشتاء وتسمى « الشاتية » . ولقد كانت الصوائف أحب الى العرب لأنهم كانوا أكثر احتمالاً للحر من عدوهم وأقل صبراً على البرد . ويبدو أن العرب لم يستقروا في شمالي الشام وراء أنطاكية . ولما عجز العرب عن الاستقرار وراء ذلك ، كما عجز الروم عن استرداد شيء من الأرض جنوب أنطاكية ، تحولت حروب العرب والروم غَزَوات كاسحة للتخريب والتدمير . ولقد أتفق للعرب أن اخترقوا بلاد الروم (آسية الصغرى) ووصلوا الى القسطنطينية وحاصروها من غير أن يستطيعوا استيلاءً عليها . وكذلك ساروا اليها بحراً

فلم يقدروا أيضاً عليها .

كان معاوية في مطلع خلافته مشغولاً بتوطيد الأمر لنفسه ولآله وبالتمهيد لمبايعة ابنه يزيد بولاية العهد، فآثر مهادنة كونستانس الثاني(٦٤٢–٦٦٨ م) لكي يتفرغ لمعالجة الموقف الداخلي . غير أن الحرب عادت بين العرب والروم وشيكاً.

المبايعة ليزيد بولاية العهد

كانت فكرة « الوراثة في الملك » غريبة عن العرب ، فجهد معاوية بضع سنوات حتى استطاع أن يمهد لها . ولقد أشار معاوية سنة ٥١ هـ (٦٧١ م) على المغيرة بن شعبة والي الكوفة وعلى زياد بن أبيه والي البصرة أن يبعثا اليه في دمشق بوفدين من ذوي الميل الى وراثة الملك وأخذ البيعة ليزيد ، ففعلا . أما وفد الكوفة فقد زين لمعاوية المبايعة ليزيد بولاية العهد . وأما وفد البصرة فقد نصح بالتروي والتريث ، كما كان زياد بن أبيه قد أوصاه أن يفعل . ورأى معاوية أن نصيحة زياد على لسان وفد البصرة في محلها ، وأن مخالفة زياد – في هذا الشأن خاصة – ذات عقابيل ، فأجل المبايعة حتى توفي زياد (٥٣ هـ) . ثم خاف معاوية أن يدركه الأجل قبل تنفيذ رغبته فأخذ البيعة ليزيد بولاية العهد على أهل الشام ثم على أهل الكوفة والبصرة، سنة ٥٦هـ . ولكن أهل الحجاز لم يرضوا فسار معاوية بنفسه على رأس جيش الى مكة والمدينة وأخذ على أهلهما البيعة ليزيد بالقوة . ولكن ظل هنالك نفر لم يقبلوا أن يبايعوا طوعاً ولا استطاعوا أن يقاوموا فسكتوا ، ثم أخذوا يعدون العدة للانتقاض على بني أمية حينما تسنح الفرصة . من هؤلاء الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير .

خلافة يزيد

مات معاوية سنة ٦٠ هـ (٦٨٠ م) فخلفه ابنه يزيد . ومع أن يزيد لم يكن له دهاء أبيه ولا مقدرته السياسية والادارية ، فان الولاة الذين تركهم

معاوية بعده كانوا ذوي مقدرة وكانوا حِراصاً على حفظ الخلافة في بيت معاوية ، فأخلصوا في خدمة يزيد كما كانوا قد أخلصوا في خدمة أبيه من قبل .

مأساة كربلاء

لم ينس الكوفيون عداءهم لأهل الشام ، ثم ظنوا أنهم يستطيعون أن ينتقموا لأمسهم مع معاوية بقتال يزيد اليوم . فكاتبوا الحسين بن علي حتى يقدُم عليهم الى الكوفة فيحاربوا بني أمية تحت لوائه . وكان الحسين عاقلاً فنظر في التاريخ القريب فوجد أن الكوفيين قد خذلوا أباه علياً ثم أخاه الحسن من بَعدُ ، فما يمنعهم من ان يخذلوه هو ؟ فأبى السير اليهم . حينئذ جاء أربعون ألفاً من الكوفيين اليه في مكة بسلاحهم يعلنون استعدادهم لخوض المعركة الى جانبه . فحَسُن ظن الحسين بهم ووعدهم بالمسير معهم . وفي أثناء الطريق رأى الحسين الشاعر الفرزدق ناجياً من عبيد الله بن زياد ، فسأله عن موقف أهل الكوفة فقال له الفرزدق : « قلوبهم معك وسيوفهم معَ بني أمية » . ولكن الحسين تابع سيره .

ولما علم عبيد الله بن زياد بقدوم الحسين أرسل اليه الحُرّ بن يزيد ليرده عن دخول الكوفة (أول المحرم ٦١ = أول تشرين الاول ٦٨٠) فأبى الحسين . حينئذ أرسل عبيد الله الى الحسين جيشاً بقيادة شَمِر بن ذي الجوْشَن ، فلقيه شمر في كربلا وقاتله بعد أن خذله جميع أصحابه وجميع الذين دَعَوه ألى الكوفة ثم انضموا الى جيش شمر . فأخذ الحسين يقول : « اللهم ، احكم بيننا وبين قوم دَعَونا لينصرونا ثم هم يقتلوننا » . ولم يقاتل مع الحسين في كربلاء سوى أربعين شخصاً من أهل بيته . وتولى مقاتلةَ الحسين اهلُ الكوفة ولم يشهد قتله أحد من أهل الشام . واستُشهِد الحسين في كربلاء يوم عاشوراء (١٠ من المحرم) سنة ٦١ .

وقد اختلف رأي الناس في الحسين ويزيد ، في شأن كربلاء ، كما اختلفوا في شأن أصحاب الحسين وأصحاب يزيد . وأحسب أن ابن خلدون قد بسط

ذلك في مقدمته أحسن بسط وفصّل فيه أحسن الفصل (المقدمة، بيروت، ص ٣٨٧ – ٣٩٠):

«لما ظهر فسق يزيد عند الكافة من أهل عصره بعثت شيعة أهل البيت للحسين أن يأتيهم فيقوموا بأمره. فرأى الحسين أن الخروج على يزيد متعيّن من أجل فسقه ولا سيما ممن له القدرة على ذلك، وظنها من نفسه بأهليته وشوكته[1]. فأما الأهلية فكانت كما ظن وزيادة، وأما الشوكة فغلط يرحمه الله فيها، لأن عصبية مُضَر كانت في قريش، وعصبية قريش في عبد مَناف، وعصبية عبد مناف انما كانت في بني أمية تعرف ذلك لهم[2] قريش ولا ينكرونه. وان نُسي ذلك أوّل الاسلام من الذهول بالخوارق وأمر الوحي فأغفل (العرب) أمور عوائدهم وذهبت عصبية الجاهلية ونُسيت. ولم يبق الا العصبية الطبيعية في الحماية والدفاع يُنتفع بها في اقامة الدين وجهاد المشركين، والدين فيها مُحكّم والعادة معزولة. حتّى اذا انقطع أمر النبوة والخوارق المهوّلة تراجع الحكم بعض الشيء للعوائد. فعادت العصبية كما كانت ولمن كانت، وأصبحت مضر أطوع لبني أمية من سواهم بما كان لهم قبل الاسلام. فقد تبيّن لك غلط الحسين، الا أنه في أمر دنيوي لا يضره الغلط فيه. وأما الحكم الشرعي فلم يغلط فيه لأنه منوط بظنه، وكان ظنه القدرة على ذلك.. وأما غير الحسين من الصحابة الذين كانوا بالحجاز، ومع يزيد بالشام والعراق، ومن التابعين لهم فرأوا أن الخروج على يزيد – وان كان فاسقاً – لا يجوز لما ينشأ عنه من الهَرْج[3] والدماء. فأقصروا عن ذلك ولم يتابعوا الحسين ولا أنكروا عليه ولا أثّموه لأنه مجتهد.. ولا يذهب بك الغلط الى أن تقول بتأثيم هؤلاء بمخالفة الحسين وقعودهم عن نصرته.. لأن قعودهم (عن نصره) كان عن اجتهاد منهم كما كان فعله (حرب الحسين

---

(١) ظن الحسين ان له قدرة على قتال يزيد لأنه هو أهل الخلافة.
(٢) تقر لها بـه.
(٣) الفتنة والقتال.

ليزيد) عن اجتهاد منه .. فلا يجوز قتال الحسين ليزيد (لأن الحسين كان أضعف من يزيد عصبية ، فالدولة كانت يومئذ ليزيد ولقومه بني أمية) ، ولا يجوز ليزيد (أن يقاتل الحسين) بل هي من فعلاته المؤكدة لفسقه . والحسين فيها شهيد مُثاب ، وهو على حق واجتهاد . والصحابة الذين كانوا مع يزيد على حق واجتهاد أيضاً » .

وقعة الحرة

لم يرض أهل الحجاز عن خلافة يزيد فبايعوا عبد الله بن الزبير وعزموا على قتال يزيد . فلما علم يزيدُ بذلك أرسل الى الحجاز جيشاً بقيادة مُسْلم بن عُقْبة المُرّي . وحارب مسلم بن عقبة أهل الحجاز في مكان يدعى الحَرَّة (الأرض البركانية) ، شرق المدينة ، في ذي الحجة من سنة ٦٣ (آب ٦٨٣) ، ودخل المدينة على أثر ذلك . بعدئذ سار مسلم بن عقبة الى مكة يريد قتال عبد الله بن الزبير ، ولكنه مات في الطريق . فتولى قيادة الجيش الأموي الحُصين بن النُمير فلما وصل الى مكة في الرابع من المحرّم من سنة ٦٤ (٢ أيلول ٦٨٣) أقام حولها محاصراً لها ، ثم طال حصاره أياها .

موت يزيد

في هذه الاثناء توفّي يزيد (١٤ ربيع الاول ٦٤ = ١١ تشرين الثاني ٦٨٣) فرفع الحصين بن النمير الحصار عن مكة وعاد الى دمشق .

كان يزيد خليفة عمرانياً وملكاً ادارياً ، أتمّ نظام الريّ في الغُوطة (الحدائق في ضواحي دمشق) وحفر فيها القناة التي تدعى « نهر يزيد » . ولقد سمي من أجل ذلك « مهندس بني أمية » . وهو الذي زاد في المقاطعات الادارية جند قِنّسرين حينما اتسعت الفتوح في شمالي سورية ، فأصبحت الاجناد خمسة بعد أن كانت أربعة . وكذلك كان يزيد شاعراً يحب الموسيقى ويتذوق

سائر الفنون . إلا أن قصر خلافته ، وهي لم تزد على ثلاث سنوات ، والفتن التي حدثت في أيامه قد شلت يده في جميع الأعمال الجليلة . وكانت الجيوش العربية تحتل رودس وتحاصر القسطنطينية ، منذ أيام معاوية ، فأمرها يزيد بالعودة الى الشام .

معاوية بن يزيد

في هذا العاصف السياسي خلف معاويةُ الثاني أباه يزيد ، وكان ضعيف الجسم قليل العزم . فيقال إنه خَشِيَ الفتنة الجامحة فآثر اعتزال الخلافة . وقيل بل مات من علته وشيكاً ، وقيل بل دس له الطامعون في الخلافة من أهل بيته السم فمات متأثراً به . وترك معاوية بن يزيد الأمر بعده فوضى .

انتقال الخلافة إلى الفرع المرواني

لما مات معاوية بن يزيد كان المطالبون بالخلافة كثاراً :

آ ــ آل علي بن أبي طالب ، ولكن لم يكن فيهم بعد معركة كربلاء من يليق بالخلافة أو من يجسر على الاقدام عليها :

(١) محمد بن الحنفية (ابن الامام علي من امرأته خولة ، وهي من بني حنيفة) ولكنه لم يكن راغباً في الخلافة .

(٢) علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (وهو زين العابدين) ، ولكنه كان لا يزال حدثاً .

ب ــ سائر قريش :

(١) خالد بن يزيد (أخو معاوية بن يزيد) .

(٢) الوليد بن عُتبة بن ابي سفيان (ابن عم يزيد بن معاوية) .

(٣) عثمان بن عتبة بن ابي سفيان .

(٤) عمرو بن سعيد بن العاص .

(٥) مروان بن الحكم ، شيخ بني أمية وكاتب عثمان بن عفان ، وكان مروان يعد من دهاة العرب .

(٦) عبد الله بن الزبير شيخ الحجاز والثائر على يزيد بن معاوية .

(٧) عبيد الله بن زياد بن أبيه (وكان معاوية قد ألحق زياد بن أبيه بنسب أبي سفيان) .

لم يكن بين هؤلاء المتنافسين من يعتمد على حزب قوي وانصار كثيرين سوى مروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير . الا ان مركز عبد الله بن الزبير

كان أقوى ، اذ كان قد نادى بنفسه خليفة بعد مقتل الحسين فبايعه أهل الحجاز والعراقَيْنِ (الكوفة والبصرة) . ثم لما مات معاوية الثاني — بايعت القيسيةُ في الشام ابن الزبير لأنهم كانوا ناقمين على يزيد وابنه معاوية اللذين قدّما اليمانيين في مراتب الدولة . وكذلك انضم اليه الضحاك بن قيس الفِهْري امير دمشق يومذاك ، والنّعمان بن بشير الانصاري امير مصر ، وزُفَر بن الحارث الكلابي امير قنسرين ، وناتل بن قيس الجُذامي أمير فلسطين . وقد دُعي لابن الزبير يومذاك على منابر مصر والحجاز والشام والجزيرة والعراق وخراسان وسائر أمصار الاسلام الا طبرية من بلاد الاردنّ ، فان اميرها ابن بَحْدل الكلبي (من بني حارثة بن جَناب) امتنع عن الدعاء لابن الزبير أو الدخول في طاعته وأراد عقد الأمر لخالد بن يزيد (لانه ابن اختهم ، اذ كانت جدته مَيْسون الكلبية) . وكذلك أدرك عثمان بن عُتْبة بن ابي سفيان ان مركزه ضعيف جداً في هذا الكفاح السياسي فالتحق بابن الزبير .

تطور النزاع بين الاحزاب

(١) أما آل علي فاستغل جاهَهم المختارُ بن أبي عبيد الثقفي . ان المختار لما فارق ابن الزبير وخلع طاعته وجحد بيَعْته كتب كتاباً الى علي بن الحسين السجاد (زين العابدين) يَعرِض عليه فيه ان يبايع له ويقول بأمامته ويُظهر دعوته ، ثم انفذ له مع الكتاب مالاً كثيراً . فأبى علي بن الحسين ذلك وسبّه على رؤوس الملأ في مسجد الرسول وأظهر كذبه وفجوره وخداعه للناس بأظهار الميل الى آل ابي طالب (مروج ٣ : ٢١) .

ولما يئس المختار من علي بن الحسين كتب الى محمد بن الحنفية بمثل ذلك . ولكن علي بن الحسين وابن عباس نصحا لابن الحنفية بألا يجيب المختار ، ثم نصح ابن عباس لابن الحنفية بأن يتريث حتى ينجلي موقف ابن الزبير . الا ان المختار لم يبال بذلك وأقبل يدعو الناس على قدر طبقاتهم ومقاديرهم في انفسهم وعقولهم : فمنهم من يخاطبه بامامة محمد بن الحنفية ، ومنهم من

يخاطبه بأن المَلَك يأتيه (يأتي المختار) بالوحي ويخبره بالغيب. ثم ان المختار تتبع قتلة الحسين فقتلهم، فزاد ميل أهل الكوفة اليه ومحبتهم له فاشتد أمره وكثر رجاله (مروج ٣ : ٢١ — ٢٢).

وكان لمحمد بن الحنفية خاصة شيعة هي الشيعة الكيسانية تقول بامامته. ثم انهم تنازعوا بعده: فمنهم من قطع بموته، ومنهم زعم انه لم يمت وانه حي في جبال رَضْوى. وقد سمي هؤلاء «الكَيسانية» نسبة الى المختار ابن أبي عُبيد الثقفي، وكان اسمه كيسان، او نسبة الى غيره ممن اسمه كيسان (مروج ٣ : ٢٤ — ٢٥).

(٢) ولما توفي معاوية الثاني كان عبيد الله بن زياد أميراً للبصرة فخطب في البصريين وأعلمهم بموت معاوية بن يزيد وان الأمر شورى لم ينصب له أحد. ثم حثهم على ان يجعلوا الأمر فيهم — في أهل العراق — فالارض في العراق واسعة والنفوس كثيرة والاموال في بيت المال وافرة. فقام اشراف البصريين كالاحنف بن قيس التميمي وقيس بن الهيثم السُلَمي ومُسْمِع بن مالك العبدي فقالوا: «ما نعلم ذلك الرجل غيرك أيها الأمير، وانت أحق من قام على أمرنا حتى تجتمع الناس على خليفة». ومع أن عبيد الله أبى ذلك في الظاهر، فانه كتب الى عامله على الكوفة عمرو بن حُريث الخُزاعي يأمره بأن يدخل أهل الكوفة في ما دخل فيه أهل البصرة. فأبى الكوفيون وقام يزيد بن رُوَيم الشّيباني وأنكر ذلك. ثم خلع الكوفيون ولاية بني أمية وإمارة بني هاشم وأحبوا ان تكون الخلافة في الحجاز (مروج : ٣ : ٣٠ — ٣١).

(٣) ولما خلع أهل الكوفة عبيد الله بن زياد رأى بعضهم ان يؤمّروا عليهم عمرو بن سعد بن ابي وقاص. فأبى آخرون وقالوا: أما رضي عمرو بن سعد بقتل الحسين حتى أراد أن يكون علينا أميراً على الكوفة؟ فبكى الناس وأعرضوا عن عمرو (مروج ٣ : ٣١ و ١٠، التنبيه ٢٦٢).

(٤) وكان خالد بن يزيد أخو معاوية بن يزيد باديَ الحق في الخلافة بين المرشحين الامويين، لأن الخلافة من قبل كانت لأبيه ثم لأخيه. ولكنه كان

صبياً لا يقاوم ابن الزبير ، مع ان بعض الامويين وأهل طبرية أرادوها له .
وكان مروان خاصة يدفعه عنها) التنبيه ٢٦٦ ومروج ٣ : ٣٠ ، راجع ٣٥) .

(٥) وأراد الوليد بن عتبة بن ابي سفيان ان يكون الأمر له . فلما أراد ان يصلي على معاوية الثاني صلاة الجنازة طُعن في التكبيرة الثانية فسقط ميتاً قبل ان يتم الصلاة .

(٦) ثم قدم الناس عثمان بن عتبة (أخا الوليد) فقال له بنو أميه: نبايعك، فقال لهم : على الا أحارب احداً ، فأبَوْا عليه ذلك . فصار إلى مكة ودخل في جملة ابن الزبير . وهكذا زال الأمر عن آل حرب (آل ابي سفيان) فلم يكن فيهم بعد ذلك من يرومها أو يتشوف نحوها (مروج ٣: ٢٠–٢١) .

(٧) وكذلك كان عمروُ الاشدقُ (عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس) يطلب الخلافة لنفسه . فدفعه عنها مروان ووعده بولاية العهد بعده كما كان قد وعد بها خالد بن يزيد أيضاً . وظل عمرو الاشدق يطمح الى الخلافة بعد ذلك ويناجز عبد الملك حتى دبر عبد الملك مقتله (مروج ٣ : ٣١ — ٣٢ ، ٤٦ التنبيه ٢٦٦) .

(٨) ولا شك في ان أقوى الطامعين في الخلافة يومذاوكان مروان بن الحكم ، اذ كان شيخاً مجرباً وكان بقية بني أمية في وقته (التنبيه ٢٦٦) وشيخ بني عبد مناف . وكان مروان في أول الأمر لا يريد مناجزة ابن الزبير فمال الى مبايعته . ولكن عبيد الله بن زياد منعه من ذلك وأشار عليه باللحاق بدمشق مقر عصبته ففعل . وهناك رأى ان نيل الخلافة ممكن فعاد يسعى اليها . غير أنه رأى تشدد خالد بن يزيد وعمرو بن سعيد وابن الزبير في الحرص على الخلافة فوعد الاولَيْنِ بولاية العهد بعده (التنبيه ٢٦٦ ومروج : ٣ : ٣٢ ، راجع ٣٥) ، وعزم على محاربة ابن الزبير .

(٦) وأما ابن الزبير فقد رأينا من قبل انه بويع في الحجاز والكوفة ومصر والعراق وخراسان فلم يكن ليترك هذا الأمر لبني أمية ، فعزم على مناجزتهم . وفيما يلي تاريخ هذه المناجزة موجزاً.

كيف استقر الامر لمروان

اجتمع بنو أمية في الجابية ، في الثالث من ذي القَعدة من سنة ٦٤ (٢٢ حزيران ٦٨٤) ، يتشاورون فأجمعوا على عقد الأمر لمروان بن الحكَم . فلم يرض نفر من الولاة والعمال ذلك فاستبدوا بما تحت أيديهم من البلدان وأعلنوا الطاعة لابن الزبير . ثم ان الضحاك بن قيس عامل مدينة دمشق جمع ثلاثين ألفاً من القيسية وخف بهم لقتال مروان ، فلقيه في مرج راهط ، على أميال من دمشق ، في آخر ستة ٦٤ للهجرة ، فقُتل الضحاك وهُزم جيشه . بعدئذ سار مروان الى مصر وانتزعها عن طاعة ابن الزبير وولّى عليها ابنه عبد العزيز (في أوائل ٦٥ هـ) ثم عاد إلى الشام . ومن الشام أنفذ مروان عبيدَ الله بن زياد في ثمانين ألفاً ، فلقي عبيدُالله سليمانَ بن صُرَد في أربعة آلاف من التوابين (أي الذين تابوا من تقاعسهم عن نصرة الحسين لما احتاج الحسين الى نصرتهم) فاقتتل الجمعان في عين الوردة ــ أو رأس العين من أرض الجزيرة ــ (في ربيع الثاني من سنة ٦٥) ، فقُتل سليمان بن صرد ومعظم جيشه معه ، ثم انهزم الباقون راجعين إلى الكوفة .

موت مروان بن الحكم

وفي الثالث من رمضان من سنة ٦٥ (منتصف نيسان ٦٨٥) توفي مروان ابن الحكم ، قيل إن امرأته فاختة بنت أبي هاشم بن عتبة (وهي أيضاً أم خالد ابن يزيد بن معاوية) قتلته بعد أن تنافر مع ابنها خالد في حديث طويل . وقيل بل طُعن (مرض بالطاعون) . وكان عمره يوم توفّي نحو ثلاث وستين سنة .

عبد الملك بن مروان ومنافسوه

تولى عبد الملك بن مروان الخلافة بعد أبيه مروان بن الحكم ، وكان الموقف السياسي في الاسلام كما يلي :

١ ــ استتب الأمر في سورية كلها وفي مصر لعبد الملك .

٢ ـ كان أهل الحجاز والعراق وفارس وخراسان وما يلي ذلك شرقاً شيعةً لابن الزبير .

٣ ـ وكان المختار متغلباً على الكوفة يظهر الدعاء لمحمد بن الحنفية ويجدّ في طلب قتلة الحسين ، وهو في الوقت نفسه خصم لعبد الملك ولابن الزبير . أما ابن الحنفية نفسه فيظهر انه لم يكن يحب ان يدخل في ذلك الكفاح السياسي .

بقي في ميدان النزاع السياسي خصمان قويان : عبد الملك بن مروان وعبد الله بن الزبير . ولكن موقف ابن الزبير كان أثبت في الظاهر : فالحجازيون كانوا يريدون رجلاً منهم ، وأهل العراق وان كانوا لا يحبون ابن الزبير فانهم كانوا يكرهون بني أمية أشد الكره . أما مصر والشام فقد دخلتا في طاعة عبد الملك كَرْهاً بعد أن كانتا على طاعة ابن الزبير .

وأما المختار بن أبي عبيد الثقفي فانه كان مع انقلابه على ابن الزبير أشد عداوة لعبد الملك ، وخصوصاً بعد أن خرج يطالب بدم الحسين .

غير أن عبد الملك كان يتمتع بمزايا لم يكن لابن الزبير شيء منها : كان عبد الملك داهية ولم يكن ابن الزبير كذلك . وكان عبد الملك غير منازَع في بني أمية ، اذ كان قد تخلص من مناوئيه بالوعد والوعيد والقتل ، ولم يكن أمر ابن الزبير مجموعاً ، بل كان يعتمد على أناس غرّروا من قبله بعلي والحسن ومسلم بن عقيل وبالحسين . وكان عبد الملك يستظهر برجال دهاة كعبيد الله ابن زياد وبشر بن مروان والحجاج بن يوسف ، وسواهم ، ولم يكن حول ابن الزبير أحد من نظائر هؤلاء الا أخاه مُصْعَباً ، ان جاز ان يُسَوّى مصعب بعبيد الله او بالحجاج . من أجل ذلك كله لم يكن بد من ان يأخذ عبد الملك خصمه ابن الزبير بالدهاء والسياسة ، وذلك بأن يضربه بأعدائه قبل ان يتصدى هو لهم مباشرة . على ان ابن الزبير تقرب من الحجازيين عامة والمكيين خاصة فأعاد بناء الكعبة بعد ان كانت قد هدمت في أيام يزيد . ثم انه جاء بالفسيفساء التي كان ابرهة الحبشي قد زين بها كنيسته التي اتخذها بصنعاء ، ومعها ثلاث أساطين من رخام فيها وشي منقوش قد حشي السندروس وأنواع الألوان

من الأصباغ فمن رآه ظنه ذهباً. وكذلك لما شرع ابن الزبير في بناء الكعبة شهد عنده سبعون شيخاً من قريش ان قريش حين بنت الكعبة عجزت نفقتهم فنقصوا من سعة البيت سبعة اذرع من أساس ابراهيم الخليل.. فزاد ابن الزبير تلك الأذرع وزين الكعبة بالأساطين والفسيفساء وجعل لها بابين: باباً يُدخل منه وباباً يخرج منه (مروج ٣ : ٢٩ — ٣٠).

وانحاز المختار بن أبي عبيد الى ابن الزبير ثم ارسل أحد قواده ابراهيم ابن الاشتر بن مالك بن الحارث النَخَعي الى نواحي المَوْصل، فالتقى ابراهيم ابن الاشتر هنالك بعبيد الله بن زياد فقاتله يوم عاشوراء من سنة ٦٦ (١٧ آب ٦٨٥)، فسقط عبيد الله بن زياد قتيلاً مع نفر كثيرين من أشراف دمشق وانهزم جيشه هزيمة منكرة.

في هذه الاثناء تحرك ملك الروم لاوى بن فلقط (مروج ٣ : ٤٢)، ولعله لاونديوس (٦٩٥ — ٦٩٨)، يريد غزو الشام. وكذلك أغار الاعراب على حمص وبعلبك وسواهما، كما اضطرب الأمر في دمشق نفسها وهجم العبيد والدعّار والاوباش على أهلها وأوقعوا بهم نهباً وتقتيلا. فلم يجد عبد الملك بداً من مهادنة ملك الروم ليتفرغ لمجابهة الأحداث الداخلية، كما كان معاوية قد فعل من قبل.

ثم ان المختار انقلب على عبد الله بن الزبير لما ولى عبد الله بن الزبير أخاه مُصعَباً على العراق سنة ٦٧ هـ (٦٨٧ م). فسار المختار من البصرة حتى نزل حَروراء، على مقرُبَة من الكوفة، ومعه المهلب بن أبي صفرة الازدي. ونَشِبت بين مصعب والمختار هنالك معارك انهزم المختار على اثرها وتحصن بمن معه بقصر الامارة في الكوفة. فحاصرهم مصعب. ثم خرج المختار وقاتل مصعباً ولكنه سقط في المعركة قتيلاً. وبعد مدة يسيرة استسلم سائر أصحاب المختار فقتلهم مصعب كلهم (في منتصف رمضان ٦٧)، وكانوا يزيدون على سبعة آلاف.

واستتب الأمر لمصعب في العراق بضع سنوات. ولكن في سنة ٧٢ هـ

التقى عبد الملك بن مروان بمصعب بن الزبير عند مَسْكِن ، وهي قرية من العراق على شاطىء دجلة ، وكان مع عبد الملك يومذاك الحجاج بن يوسف . ووقعت بين مصعبٍ وعبد الملك معارك كثيرة نَهكَتهما ، ثم دارت الهزيمة على مصعب ، وخر مصعب قتيلاً ، يوم الثلاثاء في ١٣ جمادى الآخرة من سنة ٧٢ هـ (تشرين الاول ٦٩١) . وبعد مقتل مصعب دخل أهل العراق في طاعة عبد الملك .

وولّى عبد الملك أخاه بِشراً على الكوفة ، وأرسل الحجاجَ بن يوسف لقتال عبد الله بن الزبير في مكة ، ثم رجع هو الى دمشق .

وصل الحجاج على رأس جيشه الى الحجاز فأقام في الطائف — بين أهله — شهوراً يستعد للمعركة . ثم بدأ حصار مكة في أوائل شهر ذي القعدة من سنة ٧٢ (نيسان ٦٩٢) . وطال الحصار على مكة وتخلى عن ابن الزبير عدد كثير من أتباعه وجنده ، حتى إن ابني عبد الله بن الزبير ، خُبيبا وحمزة ، تركا أباهما والتحقا بالحجاج . ولما يئس ابن الزبير من جدوى الامتناع من الحجاج بن يوسف بالحصار ، خرج لقتاله فخرّ قتيلاً في جمادى الثانية من سنة ٧٣ (أيلول ٦٩٢) ، وله من العمر ثلاث وسبعون سنة . وبعد أن أخذ الحجاج بيعة أهل مكة لعبد الملك سار الى المدينة وحاصرها . وخاف أهل المدينة أن يفعل الحجاج بالمدينة ما فعله في مكة فبايعوا لعبد الملك طوعاً .

الفتح في بلاد الروم

ومع اشتغال عبد الملك بالمنازعات الداخلية ، فان غَزَواته الى بلاد الروم لم تنقطع . وقد غزا نفر من آل مروان بلاداً متفرقة في آسية الصغرى كعمورية وقونية ودوريليوم (أسكي شهر) ، وفي أرمينية . أما القائد الذي اقترن اسمه بغزو بلاد الروم وبالفتوح الجليلة فيها فكان مَسْلَمة بن عبد الملك ، وكان نابغة في الفنون الحربية شجاعاً ، وقد نال ثقة جميع الخلفاء وقاد جيوش الغزو باسمهم منذ أيام أبيه عبد الملك الى أيام أخيه هشام . ولكنه لم يل

الخلافة لأنه كان ابن أمة .

وكان الروم قد عجزوا عن أن ينالوا من البلاد الاسلامية نيلاً بالغزو ، فجعلوا يرسلون ، منذ أيام معاوية ، غارات قرصنة على سواحل جبل لبنان . ثم أرسلوا جماعات من أهل جبال اللُكام يعرفون بالجرّاجمة ، نسبة الى بلدهم جرّجومة ، فانتشروا ما بين جبل كسروان وسهل البقاع . وقد عرف هؤلاء في لبنان باسم المردة ، وهو اسم لا نعرف وجه اشتقاقه الصحيح ، ولعله مشتق من جذر آرامي يعني « التمرد أو الانشقاق » ، اذ ربما كان هؤلاء على مذهب ديني يخالف مذهب أهل جبل لبنان يومذاك .

وكاد هؤلاء الجراجمة يشغَلون عبد الملك عن مقارعة خصومه الداخليين وَيغُلّون أيديه عن القيام بالاصلاح . ولما عقد عبد الملك الصلح مع الروم سنة ٧١هـ (٦٨٩ م) (؟) وقبل بدفع أتاوة كبيرة في كل عام، فاوض يوستنيانوس الثاني الاشرم في أمر الجراجمة « والعمل على نقلهم من تلال لبنان وسورية والامانوس . فقبل يوستنيانوس وحطّم بيده هذا السور النحاسي الذي كان يفصل حدوده عن حدود خصومه العرب والمسلمين »[1] . ومع أن معظم هؤلاء الجراجمة أعيدوا الى بلادهم ، فالظاهر أنه قد بقيت منهم بقايا ذابت فيما بعد في البيئات المارونية في جبل لبنان . وقد عادت الحرب بين العرب والروم في سنة ٧٦ هـ (٦٩٤ م) (؟) الى ما كانت عليه من قبل .

(١) الروم وصلاتهم بالعرب ، الدكتور أسد رستم ، ص ٢٦٥ (عن اخبار ثيوفانس) .

ذروة العصر الأموي

الحجاج في العراق

كثرت ثورات الخوارج في العراق . وفي سنة ٧٤ هـ (٦٩٣ م) اشتدت شوكة الازارقة خاصة ، وهم اتباع نافع بن الازرق وكان يقول : « ان جميع الناس سوى الخوارج كفرة يجب ان يقتلوا مع نسائهم واطفالهم » . وأرسل عبد الملك الى الخوارج جيوشاً كثاراً فهزموها ثم غلبوا على الأهواز (جنوبي غربي فارس) . ولما تُوُفِّيَ والي العراق بِشر بن مروان — اخو عبد الملك — ولّى عبد الملك الحجاج بن يوسف على العراقَيْنِ (الكوفة والبصرة) . وهكذا أصبح الحجاج منذ ٧٤ هـ والياً على الحجاز كله وعلى اليمن والعراقين .

وكان الخوارج في العراق برئاسة شَبيب بن يزيد بن نُعيم الشيباني ، فحاربوا الحجاج حرباً شديدة ودخلوا الكوفة في مطلع سنة ٧٧ هـ (٦٩٦ م) . ولكن الحجاج أرسل عليهم جيشاً بقيادة المهلّب بن أبي صُفرة ، فهزمهم المهلب في آخر سنة ٧٧ هـ (٦٩٧ م) . وهلك شبيب يومذاك .

إصلاحات عبد الملك

قام عبد الملك بوجوه من الاصلاح الداخلي تعد في باب توطيد الدولة الاموية أبعد أثراً من المعارك والفتوح . ولا ترانا نبعد عن الصواب اذا دعونا عبد الملك « المؤسّس الثاني » للدولة الاموية ، بعد معاوية . ولعله المؤسس الحقيقي للدولة الأموية (دولة بني مروان في المشرق) . ولولا جهود مروان وجهود عبد الملك على الأخص لذهبت الدولة الأموية بانقراض الفرع

السفياني . ويبدو أن معظم وجوه الاصلاح التي قاقله نعنيها م بها الحجاج بن يوسف ، ولكنها تنسب في التاريخ الى الخليفة لا الى واليه على العراق . فمن هذه الاصلاحات :

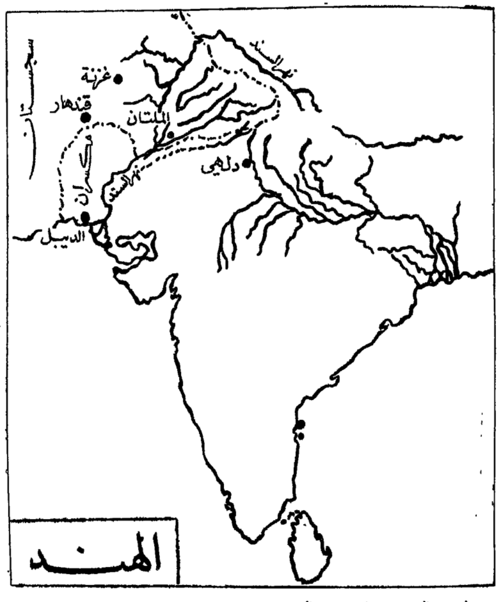
(١) نقل الدواوين (سجلات الدولة) من اللغات القبطية (في مصر) واليونانية (في الشام) والفارسية (في العراق) الى اللغة العربية . ان هذا العمل الجليل قد جعل اللغة العربية لغة دولة بعد أن كانت لغة للحياة الدينية في الاسلام . ولما اضطُرّ جميع الساكنين في البلاد الاسلامية الى تعلُّم اللغة العربية (لغة الدولة) ، اصطبغ أولئك السكان بصِبغة واحدة وجمعت بينهم ثقافة واحدة .

(٢) سك عملة للبلاد الاسلامية . كانت الطوامير (الاوراق الديوانية ، التي تكتب فيها رسائل الدولة) من صنع الاقباط (النصارى في مصر) ، وكانت موسومة في أعلاها باسم المسيح وعبارة التثليث . فأمر عبد الملك بأن يُصنع للدواوين الاموية طوامير متوجّة بالآية : « قل هو الله أحد » . فطلب ملك الروم بألا يوجه اليه عبد الملك رسائل فيها ذلك ، والا فانه يسك دنانير يذكر فيها محمداً (صلى الله عليه وسلم) بما يكرهه المسلمون (وكان المسلمون يتعاملون بالعملة الرومية والعملة الفارسية) . فنصح نفر من المسلمين لعبد الملك بأن يسك عملة خاصة . فبدأ عبد الملك سك الدنانير الاسلامية في سنة ٧٣ هـ (٦٩٢ م) . ان العملة المسكوكة باللغة العربية قد خلعت على الدولة العربية شخصية مستقلة وجعلت لها وجاهة بين العرب أنفسهم ولدى الدول الأخرى .

خلافة الوليد بن عبد الملك

توفي عبد الملك في ١٤ شوال من سنة ٨٦ (٨ أيلول ٧٠٥) ، فخلفه ابنه الوليد فشهد العرب في أيامه أزهى أيامهم وأعظم فتوحهم . وكانت صِلات الوليد بالحجاج بن يوسف وثيقة ودية ، ذلك لأن ولاية العهد في أيام عبد

الملك كانت لأخيه عبد العزيز . فأشار الحجاج على عبد الملك بأن يخلع أخاه عبد العزيز من ولاية العهد ويجعلها لابنه الوليد ثم لابنه سليمان . فحفظ الوليد للحجاج هذه اليد وترك يده مطلقة في العرق .



فتوح السند وما وراء النهر

في سنة ٨٢ ﻫ (٧٠١ م) ، وفي أواخر أيام عبد الملك ، توفي المهلب ابن ابي صفرة والي خراسان وقائد الفتح في المشرق ، فولّى الحجاج مكانه

ابنه يزيد بن المهلب . غير ان الفتوح لم تتسع في المشرق الا حينما ولى الحجاجُ قُتيبةَ بن مُسْلم الباهلي على خراسان فقدمها قتيبة سنة ٨٦ ﻫ (٧٠٥ م)، في العام الذي توفي فيه عبد الملك . وجعل قتيبة في كل صيف يقطع نهر جَيْحون غازياً ثم يرجع في الخريف الى مَرْو عاصمة خراسان (تجنباً للاشتاء في ما وراء النهر لشدة البرد) . وفي ٨٧ ﻫ أغار قتيبة على مقاطعة بُخارى وغزا بَيْكَنْد . ولكن الصُّغْد (سكان ما وراء نهر جيحون) استمدوا من حولهم وهاجموا العرب بعدد كبير وأخذوا عليهم الطرق فانقطعت اخبارهم . فأشفق الحجاج على الجند وأمر لهم بالدعاء في المساجد . وبعد كفاح طويل استطاع قتيبة ان يستولي على بيكند .

ثم ان الحجاج بن يوسف أمر قتيبة ان يفتح بُخارى ، ولكن بخارى استعصت على قتيبة فكتب الى الحجاج يخبره بالخبر . فكتب الحجاج اليه يسأله ان يرسل اليه خارطة المدينة . ودرس الحجاج الخارطة ثم أشار على قتيبة بالخطة التي يجب ان يتبعها فاستطاع قتيبة ان يدخل بخارى (٩٠ ﻫ = ٧٠٩ م) في أيام الوليد .

وظل قتيبة يتوغل في المشرق حتى وصل الى كاشْغَر على حدود الصين (٩٦ ﻫ = ٧١٥ م)، في اول أيام سليمان وبعد وفاة الحجاج . ولكن العرب لم يدخلوا الصين نفسها فاتحين ، بل انتشر الاسلام ثم انتشرت الثقافة الاسلامية فيها مع تردّد التُجّار إليها .

ثم جهز الحجاج جيشاً من الاحداث بقيادة ابن عم له اسمه محمد بن القاسم بن الحكم الثقفي وأرسله لفتح السند . فما زال محمد بن القاسم يفتح في السند بلداً بلداً حتى وصل الى مرفأها وعاصمتها الدَيْبُل . واعتصم أهل الديبل وراء أسوارهم ، فأمر محمد بن القاسم بالسلالم فنصبت وأصْعَد عليها الرجال وفتح المدينة عَنْوة (٩٣ ﻫ = ٧١٢ م) ، في أواخر أيام الحجاج وأواخر أيام الوليد .

إصلاحات الحجاج في العراق

في هذه الاثناء كان الحجاج يقوم باصلاحات داخلية في العراق . من ذلك أنه مسح العراق (أي قاسه واستخرج مِساحاته وعين أماكنه وقيد الاملاك فيه) ثم جعل كل صاحب أرض مسؤولاً عن الجريمة التي تقع في أرضه) فساعد بذلك على نشر الأمن في العراق . وكَرَّى الحجاج الاقنية الكبرى ، أي أعاد حفرها بعد أن كانت الحروب والفتن قد طمرتها) ، وقد انتعشت بذلك الزراعة ، ثم وحّد المكاييل والمقاييس والموازين فسهل بذلك الأعمال التجارية وضبط الأسعار . ومنع الحجاج أيضاً الهِجرة الداخلية ، من القرى الى المدن ، لئلا تُقفر القرى فتقل الزراعة ثم تزدحم المدن وتضيق بالعاطلين من أهلها . ومن أعمال الحجاج في العراق عنايته بالنظافة العامة ، فقد قتل الكلاب الشاردة وحبس من بال في الشارع بمدينة واسط . ثم انه زاد في حفظ الأمن بأن أقام نظام منع التجول بين صلاة العشاء وصلاة الصبح . ونظم الحجاج الجيش (جعله نظامياً اجبارياً) واختار له الاحداث فقط ، وكان يفحص المتقدمين الى الجيش فحصاً طبياً .

وكان القرآن الكريم الى أيام الحجاج لا نقط على كلماته ولا شكل ، فأمر باعجام القرآن وضبطه بالحركات . وثار القراء على الحجاج بحجة أنه قد بدل في القرآن فقاتلهم الحجاج وتغلب عليهم . ونحن اليوم نذكر الحجاج بالخير لأنه بعمله هذا قد حفظ القرآن الكريم من التحريف .

وبنى الحجاج مدينة واسط (بين الكوفة والبصرة) واتخذها عاصمة له ، بعد أن استحال عليه المُقام في الكوفة أو البصرة ، لعداء بعضهما لبعض ولعدائهما معاً لبني أمية .

مسجد بني أمية او مسجد الوليد

كان هذا المسجد موجوداً منذ أيام معاوية ، ولكن الزيادات استمرت في الدخول عليه . ثم أضيفت اليه الزخارف في أيام الوليد . وبما أن هذا

المسجد قد انتهى في خلافة الوليد بن عبد الملك ، فانه يدعى عادة مسجد الوليد . ونحن لا مندوحةَ لنا عن أن نقول بأن هدا المسجد يمثل الفن الإسلامي (أو العربي) برُغم أن عدداً كبيراً من الصناع والعمال الذين قاموا ببنائه كانوا روماً . ثم ان الخلفاء المسلمين هم الذين أمروا ببنائه وأنفقوا عليه وقصدوا من بنائه أن يحقق هدفاً اسلامياً وأن يمثل مظهراً اسلامياً بحتاً .

وكثر في أيام الوليد تعبيد الطرق وبناء المشافي واقامة دور العجزة . وقد كان الوليد أيضاً يعين لكل أعمى قائداً يهديه .

ضَعفُ الدّولة الأمويّة

سليمان بن عبد الملك

تولى سليمان الخلافة بعد أخيه الوليد في جمادى الثانية من سنة ٩٦ (شباط ٧١٥). وفي أيامه بدأ الضعف يدب في البلاد الاسلامية والدولة الاموية لسوء سياسته. ويرجع سوء سياسته الى ما كان في نفسه من نقائص شخصية كالحقد والنّهَم وحب الزينة و القسوة.

رأينا من قبل أن الحجاج بن يوسف كان قد أشار على عبد الملك بخلع أخيه عبد العزيز بن مروان من ولاية العهد ونقلها الى ابنيه الوليد فسليمان. ثم ان الحجاج عاد فأشار على الوليد، لما تولى الوليد الخلافة، أن يحوّل ولاية العهد عن أخيه سليمان الى ابنه هو، يزيد بن الوليد. فأغضب ذلك سليمان واستقر في نفسه حب الانتقام من الحجاج.

ونجا الحجاج من انتقام سليمان لأنه توفي في رمضان من سنة ٩٥ (أيار ٧١٤) قبل أن يلي سليمان الخلافة بتسعة أشهر. فصب سليمان جام غضبه على آل الحجاج وأنصاره وولاته وقواده، ثم تناول بالانتقام نفراً كثيرين من الرجال الذين خلقوا مجد الدولة الاموية. ومن الغريب أن يكون سليمان قد اتبع سياسة يمنية، مع أنه كان قيسياً، ومع أن سياسة بني أمية كانت في أساسها قيسية. ولم يُصْهِر معاوية الى اليمن بزواجه ميْسون الكلبية الا توطيداً لملكه في الشام بجمع العصبية اليمنية حوله بالزواج الى العصبية التي كانت له بالنسب. وأما مروان بن الحكم وابنه عبد الملك فتألّفا اليمانيـة ليقاوما بهم عبد الله بن الزبير الذي كان يعتمد على القيسية. ومع ذلك فان معاوية ومروان وعبد الملك ظلوا يقيمون سياستهم على العصبية القيسية ولم

يتنكّروا للقيسيين قط . أما سليمان فلم يزد على أن قضى على نفر من عباقرة العرب لأنهم قيسيون ثم ضرب القيسية باليمنية فثارت بينهم فتن ادّت الى زوال دولة بني أمية في المشرق ثم الى القضاء على دولتهم في الاندلس أيضاً .

كان الحجاج بن يوسف ، وهو قيسي من ثقيف في الحجاز ، قد سجَن في سنة ٩٠ هـ (٧٠٩ م) ، في أثناء ولايته على العراق ، يزيد بن المهلب ، وهو أزْديّ من اليمنية . واستطاع يزيد بن المهلب أن ينجو من سجن الحجاج وأن يلجأ الى سليمان بن عبد الملك ، وكان مقيماً بالرملة في فلسطين ، وذلك قبل أن يلي الخلافة . ولا شك في أن يزيد بن المهلب قد أذكى نقمة سليمان على الحجاج وعلى سياسة الحجاج . فما كاد سليمان يتولى الخلافة حتى عزل عثمان بن حيّان المُريّ عن المدينة وخالد بن عبد الله القسري عن مكة ، وسجن محمد بن القاسم الثقفي فاتح السند ثم قتله ، ونكب طارق بن زياد وموسى بن نصير فاتِحَي الاندلس ، مع أن موسى كان يماني الولاء . أما قتيبة ابن مسلم الباهلي والي خراسان فقد خاف أن يكون مصيره كمصير هؤلاء ، فاستبق الحوادث وثار على سليمان .

وعاصر سليمان بن عبدالملك ثيودوسيوس الثالث آخر ملوك الاسرة الهرقلية معاصرة تامة (٧١٥ – ٨١٧ م) أو شبه تامة . ويبدو أن ثيودوسيوس هذا كان ضعيف العزيمة طيب القلب فنزل برضاه على رغبة البطريرك ورغبة مجلس الشيوخ ورجال البلاط بأن يرقى لاوون الاسوري عرش الروم (بيزنطة). وهكذا حلت الاسرة الاسورية مكان الاسرة الهرقلية ، قبل وفاة سليمان بنحو ستة اشهر .

ولما عزم سليمان على غزو القسطنطينية براً وبحراً كان لاوون الثالث الاسوري (٧١٧ – ٧٤١) قد تبوأ العرش . واجتمعت مقدرة لاوون الاسوري مع شدة البرد والنار اليونانية على العرب ، فلم يستطع العرب فتح القسطنطينية برُغم حصارٍ دام عاماً كاملاً ، من ١٥ آب من سنة ٧١٦ الى ١٥ آب من سنة ٧١٧ ، أي طوال سنة ٩٨ للهجرة بعد بضعة أيام من سنة ٩٧ أيضاً .

وكان سليمان قد أقام بَلاطاً له في الرملة ، منذ أيام ولايته للعهد ، فاستمر بعد أن تولى الخلافة يتردد على الرملة كثيراً . وكذلك كان قد أقام معسكراً له في دابق في شمالي حلب لتوجيه الغزوات منه الى بلاد الروم .

عمر بن عبد العزيز

لما حضرت سليمان بن عبد الملك الوفاةُ ، في صفر من سنة ٩٩ (تشرين الاول ٧١٧) ، كان في مرج دابق ، شمالي حلب ، يوجّه جيش الغزو الى بلاد الروم ، ولم يكن معه أحد من أهل بيته هو ليوصي اليه بالخلافة . ولكن كان معه عمر بن عبد العزيز بن مروان ، فنصحه قوم بأن يوصي له بالخلافة ففعل . وكان ذلك — فيما يقول بعضهم — من حسنات سليمان .

سياسة عمر العسكرية

كان أول ما فعله عمر أن رد جيوش الفتح عن القسطنطينية وعن بلاد الروم . ثم أراد أن يُقْفِل المسلمين من الاندلس خوفاً عليهم من الهَلَكة لأنهم في بلاد للعدو ، وبينهم وبين بلاد المسلمين بحر . ولكنّ والِيَه على الاندلس ، السَمْح بن مالك الخَوْلاني ، كتب اليه أن المسلمين قد كثروا في الاندلس وعزّوا فصرف عمر النظر عن إقفالهم .

سياسة عمر المالية

لما استبحر الملك في بني امية ، منذ أيام معاوية ، وجعل آل البيت الاموي يغترفون الأموال من بيت المال قصّرت الجبايات التي فرضها الاسلام من الزكاة والخراج والعشور عن اطماعهم . من أجل ذلك زاد الأمويون في أشكال الضرائب على غرار ما كان عند الروم (البيزنطيين) ، وأخذوا من المسلمين زكاة وجزية ، أو شيئاً يقوم مقام الجزية ، كما لم يرضَوْا عن دخول المشركين وأهل الكتاب في الاسلام خوفاً من زوال الجزية التي كان معظمها يذهب اليهم . أما الزكاة التي يدفعها المسلمون فلم يكن بالامكان أن يستفيد بنو أمية

منها ، لانها يجب أن تنفق في الوجوه الثمانية المذكورة في القرآن الكريم .

فلما جاء عمر أمر أن تؤخذ الجزية من أهل الكتاب والمشركين وحدهم ، وأن تؤخذ الزكاة من المسلمين وحدهم . وأما العشر والخراج فيؤخذان من أصحاب الاراضي اذا كانت المحاصيل وافية ؛ فاذا أمحلت أرض في عام ما ، فان أصحابها يُعْفَوْنَ من الجباية في ذلك العام . وحظر عمر على الولاة والعمال أن يتاجروا لأنهم يستطيعون بما لهم من النفوذ أن يحتازوا التجارة ويضروا بالرعية . ثم ان الوالي أو العامل موظف في الدولة ولا يجوز له أن يقوم بعمل آخر . وكذلك حظر عمر على الولاة والعمال أن يستأثروا بالاملاك العامة لأن ذلك يضر عامّة المسلمين ، بل يحق لهم أن يتمتعوا منها بمثل ما يتمتع به كل مسلم آخر . أما اذا مات صاحب أرض ، فان ورثته أو الاشخاص الذين كانوا يعملون فيها معه يقومون فيها مقامه ، ولا يجوز للوالي أو للعامل أن يأخذ منها شيئاً ، الا اذا كان حقاً من حقوق الدولة ، وحينئذ يرسل ما أخذه الى بيت المال ولا يحتفظ بشيء منه لنفسه . ولما جاء وفد من الترك ، من سكان ما وراء النهر ، الى عمر بن عبد العزيز وشَكَوْا إليه أن الولاة يحولون بينهم وبين دخول الاسلام ، سأل عمر الولاة والعمال عن ذلك ، فقالوا له : اذا دخل هؤلاء في الاسلام سقطت الجزية فتَعجِز الدولة حينئذ عن نفقاتها (لأن الزكاة كانت تنفق على الفقراءوالمحتاجين فقط لا على تسيير أمور الدولة من رواتب وأبنية ، الخ) ، فقال لهم عمر يومذاك قوله المشهور : « ان الله أرسل محمداً هادياً ولم يرسله جابياً » . ثم أمر بألاّ يُحال بين أحد وبين الاسلام . ففي ذلك العام سقطت الجزية في مصر وفي ما وراء النهر ، اذ دخل معظم القبط ومعظم الترك في الاسلام .

ثم أن عمر حظر على بني أمية أن يأخذوا في أيامه من بيت المال ما كانوا يأخذونه من قبل . وعمد الى الاراضي التي كانت تحت أيديهم فردها ايضاً الى بيت المال . فكان ذلك من أسباب نقمة آل البيت الاموي عليه .

ان عمر بن عبد العزيز قد أدخل الضرر بسياسته المالية هذه على بني أمية

وعلى الدولة الاموية ، ولكنه قام بالمُثل العليا في الاسلام خير قيام .

حياته الشخصية

في « سيرة عمر بن عبد العزيز » أن عمر كان قبل الخلافة مُفْرِطاً في النعيم ، فلما ولي الخلافة انصرف عن الدنيا مرة واحدة وأقبل على إحياء الكتاب والسنة : على العمل بما في القرآن وعلى الاقتداء بحياة رسول الله ، فزهد في الطعام واللباس ورد ما كان يصل اليه من الأموال الى بيت المال ، حتى إنه تشوق الى الحج فلم يجد معه نفقة الطريق اليه . وكان يهمل أمر نفسه ويتحَرِص على تعجيل قضاء حقوق الرعية . فاغتنى الناس في أيامه حتى كان الرجل يطوف بزكاته ، فيما قيل ، بأطراف البلاد الاسلامية فلا يجد مسلماً محتاجاً يدفعها اليه .

ورد عمر بن عبد العزيز الشعراء عن بابه ، وجادل الخوارج في آرائهم السياسية والدينية بالتي هي أحسن ، وعفا عمن سبّه . وكذلك قطع عمر بن عبد العزيز السبّ عن علي بن أبي طالب في عقب خطبة الجمعة ، على ما كان قد رسمه معاوية ، ووضع مكان السب الآية الكريمة : « إن الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القُرْبى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ؛ يعظكم لعلكم تذكّرون » (١٦ : ٩٠) .

فبتلك السياسة وبهذه الاخلاق عدّه ابن خلدون (راجع المقدمة ٣٧٠) من الخلفاء الراشدين ومن طبقة الصحابة . ولكنّ بني أمية كرهوا سياسة عمر وأخلاقه وعدله وسقَوْه السم (١) ، فمات متأثراً به في رجب ١٠١ (شباط ٧٢٠) .

يزيد بن عبد الملك

رجعت الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز الى أبناء عبـد الملك بن مروان

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز ١٥٣ ، ١٧١ ، وراجع ١١٨ .

فتولاها منهم يزيدُ فهشامٌ .

أما يزيد فكان قيسيَّ الهوى ، وكان قد تزوج فتاة قريبة للحجاج بن يوسف . من أجل ذلك كان كارهاً ليزيد بن المهلب الذي كان يمنياً وعدوّاً للحجاج . ولما جاء يزيد بن المهلب والياً على العراق ، من قِبَلِ عمر بن عبد العزيز ، أساء معاملة آل الحجاج . ولكن لما تولى يزيد بن عبد الملك الخلافة خافه يزيد بن المهلب وثار عليه . فأرسل الخليفة اليه جيشاً بقيادة مَسْلَمة ابن عبد الملك فقاتله مسلمة قتالاً شديداً خر فيه يزيد بن المهلب صريعاً ، في ١٤ صفر ١٢٠ (٢٤ آب ٧٢٠) .

نشوب العصبيات

على أن الخطر الحقيقي على الدولة الاموية ، منذ أيام يزيد بن عبد الملك ، كان في نشوب العصبيات ، حينما جعلت القبائل العربية – من قيسية ويمنية – تتنازع وتتقاتل في أنحاء البـــلاد ، وخصوصاً في خراسان . ذلك لأن هذا النزاع قد شَغَل تلك القبائل عن الفتوح ثم عرَّض الدولة الأموية لخطر داخلي هو الاضطراب الذي ساعد الموالي المتستّرين بالدعوة العلوية على القضاء على الدولة الاموية ذات العصبية العربية . كما أنه عرض بلاد الدولة الاموية لأخطار خارجية تتمثل في هجمات الخزَر والروم في المشرق . أضف الى هذا كله اشتغال الأمويين في المشرق عن توطيد فتوحهم في الاندلس ، مما ترك الأمر هنالك فوضى أو كالفوضى ، على ما سنعرف في موضعه .

وكان يزيد بن عبد الملك خليفة مستهتراً شُغِفَ بجاريتين له هما حبّابة وسلاّمة ، ثم مات بهما عشقاً ، يوم الاربعاء في ٢٤ شعبان من سنة ١٠٥ (٢٦ كانون الاول ٧٢٤) .

هشام بن عبد الملك

لما وَلِيَ هشام الخلافة اعتمد العصبية اليمانية ، فعزل عمر بن هبيرة عن العراق (وكان قيسياً) ثم ولى مكانه خالد بن عبد الله القَسْري (وكان يمنياً) ،

وذلك في شوال ١٠٥ (آذار ٧٢٤). على أن خالداً القسريّ كان من الولاة العظام كزياد والحجاج.

وبرُغم ان خالد بن عبد الله القسري قد قضى في ولاية العراق خمس عشرة سنة (وهي أطول مدة قضاها والٍ في العراق ما عدا الحجاج)، فان خصومه كانوا كثاراً لأنه حكم العراقَ حكماً استبدادياً استغلالياً يقسم خيراتـه بين أهله واصدقائه. ولكن العراق تمتّع في عهده بسلم طويل. وكان خالد متهماً في دينه وفي أخلاقه. لقد كانت أمه مسيحية، وبقيت كذلك، فبنى لها كنيسة، فاتّهمه الناس بأنه كان يهدم المساجد ويبني الكنائس للنصارى واليهود. وكذلك اتّهموه بأنه يصاحب المانوية، حتى قيل إنه كان زنديقاً. وأخيراً لم يجد هشام بداً من ان يعزله ويولي مكانه يوسف بن عمر الثقفي، وكان قيسياً وقريباً للحجاج بن يوسف.

الدعوة العلوية

كانت سياسة بني أمية مبنية على «العصبية العربيـــة»، وكان الموالي (المسلمون من غير العرب) من الفرس والترك خاصة يَلْقَوْنَ من تلك السياسة عَنَتاً كبيراً. ولكن استبداد بني أمية كان شديداً وحكمهم كان قاسياً، فلم يستطع أولئك الموالي تحرّكاً قبل مجيء عمر بن عبد العزيز الذي كان متساهلاً جداً، وعادلاً عدلاً لم يرض عنه بنو أمية. ثم جاء يزيد بن عبد الملك وكان مشغولاً عن سياسة الملك بهواه. فلما جاء هشام كان أولئك الموالي قد استفحل أمرهم، فظهروا على مسرح السياسة والحرب.

ولم يكن للموالي، اذا أخذنا بالنظريات السياسية في العصور الوسطى (نظرية الحق الالهي ونظرية النسب)، سبب يطلبون به الملك لأنفسهم أو يردّون به أذى العصبية العربية. من أجل ذلك تَبَنّوا الدعوة العلوية وجعلوا يدعون الى رد الملك الى آل علي، ويجمعون الناس حولهم ثم يستثيرونهم بذكر المآسي التي لقيها آل بيت الرسول على أيدي الأمويين منذ أيام علي والحسن،

ومنذ أيام كربلاء والحسين على الأخص. وقد كان لهذه الدعوة مركزان: مركز قريب في الكوفة تنشر منه الدعوة سراً وجهراً، ومركز بعيد في خراسان ينشرون منه الدعوة في ما يجاوره ويعدون فيه الجيوش التي ستسير في الوقت المناسب للقضاء على بني أمية.

العباسيون يتستّرون وراء الدعوة العلوية

وبدا لبني العباس أن ينافسوا أبناء عمهم بني علي في طلب الخلافة، ولكنهم آثروا ألاّ يدعوا الى أنفسهم رأساً، لأن الموالي كانوا قد ألقوا قيادهم الى دعاة العلويين مرة واحدة، ففضلوا أن ينالوا بالدهاء ما أيقنوا أنهم عاجزون عن نيله بالقوة والغَلَبة. وهكذا تستّروا وراء الدعوة «للرضا من آل محمد»، ثم استغلوا في ذلك العاطفة العلوية عند جمهور الناس، ووجاهة العلويين عند الموالي خاصة.

كان المفهوم من الدعوة «للرضا من آل محمد» نقل الخلافة الى بني علي ابن ابي طالب، ذلك لأن الذين قاوموا الأمويين في قرن كامل من الدهر واستُشهدوا في سبيل ذلك كانوا علياً وابناءه. ولكن العباسيين كانوا يضمرون ان يستبدوا بالخلافة هم انفسهم حينما تظفر تلك الدعوة. وأبدى العباسيون براعة في سبيل دعوتهم (للرضا من آل محمد) فقد بثوها في خراسان بين الفرس وفي ما وراء النهر بين الترك، ذلك لأن سياسة الخلفاء الأمويين قامت على تقديم العرب في الولاية والقيادة على غير العرب. وهكذا ضمن العباسيون ان يثيروا الفرس والترك على بني أمية بعامل الظلم في الدرجة الاولى.

وجعل بنو العباس الحُميمة من أرض الشّراة (جنوبي الاردن) مركزاً سرياً لدعوتهم: ذلك لأن الحميمة كانت على طريق الحج، وكان بامكانهم من أجل ذلك ان يتصلوا بالحُجاج الآتين من أقطار مختلفة. وفي سنة ١٠٠ للهجرة (٧١٨ م) وجه محمدُ بن علي بن عبد الله بن عباس — وهو رأس الدعوة العباسية — من الحميمة دعاةً الى العراق وخراسان وأمر بنشر الدعوة

سراً له ولأهل بيته ، فانبث الدُّعاة يعملون بين الموالي الفرس والترك بضعة عشر عاماً .

وشعر خلفاء بني أمية بالدعوة العباسية تتسع فارادوا ان يكافحوها من طريقين : من طريق الحبس والقتل ومن طريق تبديل الولاة . أما الحبس والقتل فكانا يزيدان أهل الدعوة اندفاعاً فيها ، وأما تبديل الولاة فكان سبباً لضعف الادارة الأموية ولزيادة الاضطراب في البلاد .

وفي سنة ١١٦ للهجرة (٧٣٤ م) ظهر الحارث بن سُريج وخلع هشاماً وحارب عاصم بن عبد الله الهلالي والي خراسان ونصر بن سيّار والي بَلْخ وانتصر عليهما . فأدرك هشام خطورة الحال فعزل عاصم بن عبد الله عن خراسان وضمها الى والي العراق خالد بن عبد الله القسري (١١٧ هـ) ، فأخذ خالد جماعة من دعاة بني العباس ومثّل بهم . على ان الدعوة لم تخِفّ ، فعزل هشامٌ خالداً وولّى مكانه يوسف بن عمر الثقفي على العراق وحده ، وولى نَصْر بن سيّار على خُراسان (١٢٠ هـ = ٧٣٨ م) .

كان نصر بن سيّار من أحزم الولاة وأقدرهم ، ولكنّ أمر بني أمية كان قد اضطرب اضطراباً شديداً ، فلم يبق بإمكان أحد أن يمنع سقوط الدولة الأموية ، وان كان بامكان نفر من القادة المخلصين الحازمين أن يؤخّروا ذلك السقوط حيناً من الدهر .

في هذه الاثناء ظفر دعاة بني العباس بشابّ فارسي لا نعرف عن نشأته شيئاً ، ولكنْ نعرف أن كنيته « أبو مسلم الخراساني » ؛ فبعثه ابراهيم بن محمد بن علي ، امام العباسيين يومذاك ، الى خراسان ليساعد الدعاة . والى ابي مسلم الخراساني يرجع الفضل في بث الدعوة العباسية ومقاومة ولاة بني أمية والتغلب عليهم ، والى اجتناء ثمرة الدعوة العلوية وصرف الخلافة من العلويين الى العباسيين .

زيد بن علي : الروافض والزيدية

كان زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب من عظماء آل البيت ،

وكان يحدث نفسه بالخلافة ويطمح اليها . ويبدو أن طموحه الى الخلافة اشتهر ، فترك العراق ليتوجه الى المدينة ويعتزل فيها استتاراً عن عيون بني أمية . ولكن أهل الكوفة جاءوا اليه يشجعونه على الخروج (الثورة) على بني أمية ووعدوه بأن ينصروه بألف رجل منهم . ثم تقاطر اليه الشيعة (أنصار علي) من المدائن والبصرة وواسط والموصل وخراسان والريّ وجُرجان وسواها حتّى اجتمع حوله خمسة عشر ألف رجل ، فأعلن الخروج على بني أمية . عندئذ سار اليه يوسف بن عمر ، أمير الكوفة في ذلك العصر ، وقاتله قتالاً شديداً في معارك متعددة . ويبدو أن أتباع زيد سألوه ذات يوم ، في أثناء تلك الحرب ، عن رأيه في ابي بكر وعمر . فقال لهم : «أنا لا أقول فيهما الا خيراً . أما خروجي لقتال بني أمية فلأنهم قاتلوا جدّي الحسين ، وأغاروا على المدينة يوم الحرّة ، ثم رمَوا بيت الله (الكعبة) بالمنجنيق والنار . فلم يقبلوا منه هذا الجواب وأرادوا فراقه . عندئذ قال لهم : رفضمتوني ! فلما خذلوه من أجل ذلك وانفضّوا من حوله ظل يقاتل في نحو مائتي رجل من الذين ثبتوا معه حتّى سقط قتيلاً قرب الكوفة ، يوم الخميس ثاني صفر من سنة ١٢٢ (كانون الثاني ٧٤٠) .

ومن حركة زيد بن علي نشأ الروافض (الرافضة) والزيدية . أما الروافض فهم عشرون فرقةيبنون موقفهم الديني والسياسي على العداء العاطفي لأبي بكر وعمر . والإمامية غير داخلين في الروافض[1] . وأما الزيدية فهم ثلاث فرق يقولون بامامة زيد بن علي بن الحسين وبامامة ابنه يحيى من غير أن يتبرّأوا من أبي بكر وعمر . ثم يقولون بخلود أصحاب الكبائر في النار ، كما يقول الخوارج .

الفتوح في ايام هشام

وبرُغم جميع القلاقل فان خلافة هشام بن عبد الملك كانت حافلة

(١) الفرق بين الفرق لعبد القاهر البغدادي (القاهرة ١٣٦٧ = ١٩٤٨) ، ص ٢٥ .

بالفتوح في المشرق وفي المغرب : كان من أبرز الفتوح في المشرق قتال الترك ما وراء نهر جيحون . ويعود الفضل في ذلك الى واليين توليا خراسان هما أسد بن عبد الله القسري الذي تولى خراسان للمرة الاولى من سنة ١٠٥ الى سنة ١٠٩ ﻫ (٧٢٣–٧٢٧ م) فلم يكتب له التوفيق ، وثانيهما الجنيد المري الذي كان والياً على السند فجيء به الى خراسان سنة ١١١ ﻫ فاستطاع أن يهزم الترك ، بعد معارك عديدة وخسائر جسيمة ، ويقصي خطرهم مرة واحدة . على أن التغلب النهائي على ملوك الترك (والعرب يسمون كل واحد منهم : خاقان) لم يتم الا في ولاية أسد بن عبد الله القسري على خراسان للمرة الثانية (١١٧ – ١٢٠ ﻫ) .

في المغرب

جاء لاوون الثالث الأسوري الى عرش الروم في عام ٧١٧ م ، في السنة التي تولى فيها عمر بن عبد العزيز (٩٩–١٠١ ﻫ) ثم بقي طوال خلافة يزيد بن عبد الملك (١٠١ – ١٠٥ ﻫ) وخلال المدة العظمى من خلافة هشام (١٠٥ – ١٢٥ ﻫ) ، اذ أنه توفي عام ٧٤١ م قبل هشام بنحو عامين اثنين .

كان لاوون الثالث رجلاً قديراً ومصلحاً كبيراً ، ولكنه لم يستطع أن يصد العرب عن غزواتهم المتوالية فاستعان عليهم بالخزر ، وهم جيل من الناس كانوا يقطنون في ذلك الحين بين بحر الخزر (قزوين) والبحر الأسود ، ولعلهم من بقايا الهون . وقد حالفهم لاوون الثالث نحو عام ٧٣٠ م (١١٢ ﻫ) ، فكان من أثر ذلك أن هاجم الخزر في العام التالي أذربيجان وردوا الجيوش العربية عن دروب جبال القوقاس . ثم ان لاوون الثالث وثق صلاته بالخزر لما خطب ابنة خاقانهم الى ابنه وولي عهده قسطنطين الزبلي ، عام ٧٣٣ م . ومع أن العرب غزوا بلاد الروم وأرمينية بعد ذلك مراراً ، فان غزواتهم تلك كانت ضعيفة ثم انقطعت بعد ذلك .

اتساع بلاد الإسلام

بلغت بلاد الدولة الاموية في أيام هشام أعظم اتساعها ، فقد امتدت من شاطىء المحيط الاطلنطيقي في اوروبة وافريقية الى كاشْغَر على حدود الصين ، وهو امتداد لم تبلغه امبرطورية في العصور القديمة ولا في العصور الحديثة . اضف الى ذلك ان بلاد الدولة العربية قد نشرت ثقافتها كاملة في كل مكان نشرت ظلالها عليه .

موت هشام

ولما توفي هشام ، يوم الاربعاء في ٦ ربيع الثاني من سنة ١٢٥ (٦ شباط ٧٤٣) ، ترك وراءه بلاداً واسعة ، ولكن الدولة الاموية كانت ، بما تنازعها من عوامل الضعف ، قد اشرفت على السقوط .

الوليد الثاني والعصبية

كان الوليد الثاني ، اي الوليد بن يزيد بن عبد الملك «من فتيان بني أمية وظرفائهم وشجعانهم واشدائهم ، وكان منهمكاً في اللهو والشراب وسَماع الغناء ، وكان شاعراً محسناً» . وبلغ من قِصَر نظره في تلك الحِقبة المضطربة في تاريخ الاسرة الأموية أنه أقصى اليمانية عن مناصبهم وملأ مكانهم بالقيسية ، فثار القيسية عليه ففشا الاضطراب في البلاد . حينئذ جمع يزيد بن الوليد بن عبد الملك جيشاً ودخل الى دمشق واستولى على بيت المال ، ثم أرسل جيشاً آخر لقتال الوليد بن يزيد فانهزم الوليد ثم أُخذ فقتل ، يوم الخميس في ٢٧ من جُمادى الثانية سنة ١٢٦ (١٧ نيسان ٧٤٤) .

يزيد الثالث واتساع الدعوة العباسية

لم يكد يزيد الثالث او يزيد بن الوليد بن عبد الملك يتولى الخلافة حتى كثُرت عليه الفتن ، فان القيسية في حمص ثاروا عليه ، وثارت عليه فلسطين . وكذلك ثارت العصبية بين القيسية واليمنية في خراسان . هذا الاضطراب ساعد

الدعوة العباسية على الاتساع والرسوخ ، وزاد العباسيين جرأة على قتال بني أميـــة .

ابراهيم بن الوليد والانقسام في البيت الاموي

ولما تُوفّيَ يزيد الثالث ، في أول ذي الحجة من سنة ١٢٦ (٢٥ أيلول ٧٤٤) خلفه أخوه ابراهيم بن الوليد . ولكن ابراهيم كان ضعيفاً جداً فلم يفز بمبايعة جميع المسلمين : فكان ناس يسلمون عليه بالخلافة وناس يسلمون عليه بالامارة وناس لا يسلمون عليه بواحدة منهما .

فلما علم مروان الثاني المشهور باسم مروان بن محمد (وهو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم) – وكان والياً على ما بين النهرين وارمينية والموصل واذربيجان – بموت يزيد وخلافة ابراهيم جمع جيشاً وحارب ابراهيم وانتصر عليه ثم دخل دمشق ظافراً فبويع فيها بالخلافة ، وذلك يوم الاثنين في ٢٦ من صفر من سنة ١٢٧ (٧ كانون الاول ٧٤٤) . بعدئذ عاد مروان الى حرّان – فيما بين النهرين – حيث يكثر أنصاره من القيسية ، واتخذها عاصمة له ، هرباً من دمشق والشام حيث كانت السيادة لليمانية .

سُقوط الدّولة الأمويّة

كان لسقوط الدولة الاموية أسباب متعددة بعضها قديم قِدَمَ الدولة الاموية نفسها . ولكن لما تجمعت هذه الأسباب وتطورت أصبح سقوط الدولة الأموية محتوماً ، برُغم كل ما فعله مروان بن محمد للحيلولة دون سقوطها .

١ — تعاقب خلفاء اقوياء وضعفاء :

كان في الامويين خلفاءُ ضعافٌ جداً أمثال معاوية بن يزيد والوليد بن يزيد ويزيد بن الوليد وابراهيم بن الوليد ، ولم يشكَّ في ضعف هؤلاء أحد . على ان المؤرخين مختلفون في شأن عمر بن عبد العزيز . لا ريب في أن عمر ابن عبد العزيز كان من الناحية السياسية ضعيفاً وان كان من ناحية الاصلاح والدين قوياً . ان مجيء خلفاء ضعاف يشجع الناقمين والانتهازيين على الانتقاض ، وخصوصاً اذا سبق هؤلاء الخلفاء الضعاف خلفاءُ اقوياء سيطروا على الشعب كله وملكوه قسراً .

٢ — اتساع رقعة الدولة وقِلة عدد العرب :

بلغت الدولة الاسلامية أعظم اتساعها في أيام الأمويين فتعذر على الأمويين ادارتها ادارة مركزية قوية . ومع ان مصر والمغرب ثم العراق والمشرق كانت عملياً مستقلة في ادارتها عن دمشق ، فان الشام (سورية) نفسها وشبه جزيرة العرب كانتا احياناً مهد اضطراب شديد وخصوصاً حينما بدأت العصبيات بالتنازع .

٣ — تنازع العصبيات

نَقصد بتنازع العصبيات النزاع الذي جرى بين عرب الشمال وعرب

الجنوب في سورية نفسها أو في المقاطعات (العراق وخراسان على الأخص) .
ولقد كان الدافعَ الاول الى هذا النزاع حبُ السيطرة ، وذلك أن الخلفاء الامويين أنفسهم كانوا يقدّمون اليمنية مرة والقيسية مرة أخرى . فاذا تقدم اليمنية احتلوا مراتب الدولة ونكّلوا بالقيسية ، واذا قدّم أحدُ الخلفاء القيسية عاد القيسية الى الحكم وانتقموا من اليمنية خصومِهم . ولعل من أبرز الأمثلة على ذلك ان عبد الملك بن مروان قدّم الحجاج بن يوسف لمقدرته وحزمه ، ثم جاء الوليد بن عبد الملك فأقرّ الحجاج . ولكن الحجاج كان من ثقيف وثقيف من قيس . وبما ان الحجاج كان قد ملأ مراتب الدولة بأهله فلقد امتلأت تلك المراتب بالقيسيين .

فلما جاء سليمان ، وكان يكره الحجاج ، لم يستطع ان ينتقم من الحجاج (لأن الحجاج كان قد مات) فصب غضبه على الذين قرّبهم الحجاج فأقصاهم عن الحكم وسجن بعضهم وقتل بعضهم . ثم ان سليمان ولىّ على العراق يزيد بن المهلب (وكان يمانياً) فأخذ يزيد يضطهد القيسية ... وبما ان تنازع العصبيات هذا كان من اعظم الأسباب التي أدت الى أضعاف الدولة الأموية فيحسن ان نستعرض خصائص القيسية واليمنية .

القَيْسية (أو العَدْنانية أو المَعَدِيّة أو النِزارية) هم عرب الشّمال . أما اليمنية (أو القحطانية أو الكَلْبية أو الأزْدية) فهم عرب الجنوب . وفي ما يلي أبرز خصائصهم :

جنسياً : كان عرب الشمال اصفى نسباً ، بينما عرب الجنوب كانوا قد اختلطوا بسكان افريقية .

ـ عددياً : كان عرب الشمال اكثر عدداً من عرب الجنوب .

ـ اجتماعياً : عرب الشمال اكثرهم بدو ، بينما عرب الجنوب اكثرهم حَضَر . وكان عرب الجنوب سكان سواحل وجبال في الأكثر ، وكانت بلادهم اكثر خِصباً (تسمى اليمن : البركة) . ولذلك كانت الزراعة في بلادهم منتشرة جداً وكانت الصناعة مزدهرة . ثم ان اليمن كانت المركز

الرئيسي بين الهند وفارس وشرقيّ افريقية وبين غربيّ آسية وشمالي افريقية واوروبة .

– ثقافياً : كان عرب الجنوب أرقى ثقافياً لاحتكاكهم بثقافات متعددة : بالثقافة الحبشية والفارسية والهندية . أما عرب الشمال فكانت البوادي والرمال محيطة ببلادهم ، فلم يكن لهم الا اتصال يسير بالفرس .

– سياسياً : أقام عرب الجنوب دولة جامعة ، ثم كان لهم دول متعددة . غير ان اليمن خضعت في بعض عهودها مرة للحبشة ومرة للفرس ، فتعوّدت بذلك الخضوع للحكم الاجنبي ، بينما عرب الشمال لم يؤسسوا دولة جامعة قبل ظهور الاسلام ولا تعودوا الخضوع لحكم اجنبي . أما سيطرة آل كِنْدة (قوم امرىء القيس بن حجر ، وكانوا يمنيين) على بني أسد (القيسيين) فلم تطل كثيراً بل انتهت بثورة جامحة قتلت اكثر أفراد آل كندة وقضت على ملكهم هناك . وأما المناذرة الذين خضعوا في العراق لحكم الفرس ثم الغساسنةُ الذين خضعوا في الشام لحكم الروم فلم يكونوا من عرب الشمال بل من عرب الجنوب .

وهكذا نرى بوضوح ان اختلاف البيئتين قد جعل النزاع بين عرب الشمال وبين عرب الجنوب منتظراً ، كما ان تعوُّد عربِ الجنوب الخضوعَ للحكم الاجنبي يفسر لنا استعانة الأمويين بهم الى حد بعيد .

٤ – الخوارج خاصة

بدأت حركة الخوارج سياسية ، واستمرت سياسية مدة طويلة جداً . ان الخوارج كانوا يقاتلون الولاة الامويين فضعفت الدولة الأموية بذلك ضعفاً شديداً ، وخصوصاً في أواخر أيامها حينما سيطر الضحّاك بن قيس الشيْباني على العراق وجنوبي فارس وكاد يقطعهما من الدولة الأموية مرة واحدة .

٥ – تنازع البيت الأموي (على ولاية العهد) :

انقلبت الخلافة في الاسلام ، مع مجيء بني أمية ، وراثية . ولقد انتقلت

في الفرع السفياني من معاوية الى ابنه يزيد فإلى حفيده معاوية بن يزيد. فلما انتقلت الخلافة الى مروان بن الحكم أوصى مروان بولاية العهد لإبنه عبد الملك ثم لابنه الآخر عبد العزيز. ولكن عبد الملك ما كاد يصبح خليفة حتى نقل ولاية العهد من أخيه عبد العزيز الى ابنه هو، الوليد بن عبد الملك، ثم لابنه الآخر سليمان بن عبد الملك. ان هذا الاختلاف على ولاية العهد كان في اول الامر خصاماً عادياً ونزاعاً يُحل بتفاهم الأمويين أو باكراه بعضهم لبعض، ولكن فيما بينهم. ولكن منذ أيام الوليد الثاني تطور هذا النزاع فأصبح اغتيالاً أو اقتتالاً.

٦ – ثورة الشيعة في خراسان (ومعهم اليمانية):

وحركة التشيّع نشأت أيضاً نشأة سياسية. ولكن أصحاب هذه الحركة في المشرق لم يستطيعوا قط أن يصلوا الى الخلافة. ولما أدرك الشيعة انهم لن ينجحوا في ثوراتهم على الامويين انسحبوا ليعيشوا بعيدين عن مركز الخلافة آمنين على نفوسهم على الأقل. ولقد ظلوا بطبيعة الحال ناقمين على بني أمية. في هذه الاثناء كانوا قد جمعوا انصاراً كثاراً من الموالي في فارس عموماً وفي خراسان على الأخص. هؤلاء الموالي المناصرون للشيعة كانوا ايضاً ناقمين على الأمويين لسياستهم القومية والاقتصادية.

ثم زادت النقمة في خراسان على الأمويين لمّا جاء مروان الثاني وقرب اليه القيسية. نحن نعلم انه كان في خراسان عدد كبير من اليمانية يبلغ نحو مائتي الف[1]. فلما علم هؤلاء بتقريب مروان لخصومهم القيسيين زادت نقمتهم وضموا جهودهم الى جهود الشيعة والموالي وأعلنوا الثورة على الامويين. ومما زاد في خطر اليمانية في خراسان على الدولة الأموية ان هؤلاء اليمانية لم يعيشوا عرباً في كل شيء ولا نزلوا احياء خاصة بهم. بل كانوا يعيشون مع الايرانيين ففرضت عليهم الحياة ان يتفاهموا مع الايرانيين.

(١) تذكر ان زياد بن ابيه كان قد أبعد خمسين الف من اليمانية ومن القيسية أيضاً الى خراسان.

ثم انساقوا في الحياة الايرانية فلبسوا السراويل وشربوا الخمر واحتفلوا بالنيروز والمهرجان وتزيّا وجهاؤهم بزي الدهاقين والمرازبة ، وتكلموا كلهم اللغة الفارسية . وهكذا أصبح القسم الشرقي من بلاد الدولة الأموية ، بما فيه من موالٍ وعرب ، معادياً للدولة الحاكمة في الشام . فلما استغل الشيعة هذه النقمة وقاموا بثورتهم على نصر بن سيار ، والي خراسان ، ثم ساروا ينتزعون الأقطار من سلطان الأمويين كان في جيوشهم الموالي والعرب . ان الأساس « العربي » الذي بنى عليه الامويون دولتهم قد تزعزع الآن لما ثار عليه العرب أنفسهم .

٧ ــ التيارات الفكرية المختلفة :

ونشأت في العصر الأموي تيارات فكرية مختلفة كالتشيع والمذهب الخارجي والاعتزال والإرجاء . ولقد كان بعض هذه التيارات مخالفاً لبعضها الآخر او مناقضاً له . هذا زاد في اضطراب الأمر على الأمويين ، وخصوصاً حين جعل نفر من الأمويين يتزعمون بعض هذه الحركات ، كما فعل مروان الثاني الذي كان قدرياً (معتزلياً) . ان موقفه هذا قد أثار عليه نقمة العامة .

٨ ــ ترفع العرب عن الأعمال اليدوية وعن الصناعة والتجارة :

كان العرب دائماً يخصون أنفسهم بالامارة والقيادة والشعر ، وتركوا كل شيء آخر . لذلك انصرف الموالي وأهل الذمة الى احتراف الصناعات المختلفة والى الاشتغال بالتجارة . وهكذا تكون الطبقة الحاكمة في الاسلام قد تركت القوة الحقيقية في المجتمع لخصومها .

الاحداث في أيام مروان بن محمد

كان مروان بن محمد بن مروان بن الحكم من كبار الخلفاء الامويين ، يُعَدُّ في المقدرة والدهاء مع معاوية وعبد الملك وهشام . ولكنه تولى الخلافة والفوضى تعصف في بلاد الدولة العربية . وكان مروان بن محمد يلقب بمروان الحمار لشجاعته وصبره في الحرب واحتماله للمشاق .

واجه مروان بن محمد المصاعب منذ الساعة التي تولى فيها الخلافة :

(١) لما اتخذ مروان عاصمته في حرّان ، بين أنصاره القيسية ، غضب اليمنية في الشام وثاروا عليه ، فسار مروان اليهم وأخضعهم وشيكاً . ثم انه حشد منهم جيشاً وضمه الى أصحابه وسار يريد اخضاع العراق الذي لم يكن قد بايع له بالخلافة بعد . ولكن اليمانية الشاميين انفصلوا من جيش مروان في أثناء مسيره والتفّوا حول سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وكان مقيماً في الرُصافة ، ثم بايعوه بالخلافة . فسار سليمان بهم في آخر سنة ١٢٦ هـ واستولى على قِنّسْرين . عندئذ قطع مروان مسيره الى العراق والتفت الى حرب سليمان بن هشام وهزمه . فنجا سليمان بنفسه الى حمص ثم الى الكوفة . بعدئذ استأمن سليمانُ من مروان ، فأمنه مروانُ وأسكنه معه في حران (الطبري ٢ : ١٨٩١ — ١٨٩٣) .

وخاف مروان أن تتسع حركة العصيان عليه في مدن الشام فقوّض أسوار حِمْص وبعلبكّ ودمشق والقدس وسواها . ولم يستطع مروان أن يصبح سيد الشام والعراق الا في أواخر سنة ١٢٨ هـ (صيف ٧٤٦ م) .

(٢) في سنة ١٢٦ هـ (٧٤٤ م) خرج عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب على الأمويين في الكوفة . وزعم عبد الله بن معاوية لأتباعه أن روح الله قد انحدرت اليه من آدم دائرة في الانبياء وفي الائمة من أسلافه آل علي حتى حلت فيه . وكان أتباعه يُعْرفون بالجَناحية ، لأن نسب عبد الله بن معاوية يتصل بجعفرٍ الطيار ذي الجناحين . وقد كثُر الجناحية بناحيتي فارس وإصفهان . وهم يعدون في الغلاة الخارجين عن فرق الاسلام لتساهلهم في العبادات وفي اتيان المحارم ، ولتأليههم عبد الله بن معاوية . غير ان ابا مسلم الخراساني قاتل عبد الله بن معاوية وقتله .

(٣) ثار الخوارج في الكوفة بقيادة الضحّاك بن قيس ، في رجب من سنة ١٢٧ (نيسان ٧٤٥) . ولكنهم انهزموا . غير أنهم عادوا فيما بعد الى العراق في منتصف سنة ١٢٨ (ربيع عام ٧٤٦ م) بقيادة الضحاك نفسه ، وسيطروا

على العراق وعلى قسم من فارس . ولقد انضم اليه في ذلك الحين عدد كبير من اليمنية ومن غيرهم لأنه جعل يدفع للذين ينضمون اليه أعطيات كبيرة . وهكذا اجتمع تحت لوائه اثنا عشر ألف رجل . عندئذ سار مروان بنفسه لقتال الضحاك فلقيه عند كفرتوثا (في الجزيرة) فقتله وهزم جيشه في آخر سنة ١٢٩ (آب ٧٤٨) . وحينئذ فقط انسحب الخوارج نهائياً الى منطقة الجبال ، في غربيّ فارس ، وانجاب خطرهم عن العراق .

وقد استطاع مروان بن محمد أن يتغلب على هذه الفتن كلها في عامين ، بين سنة ١٢٦ وسنة ١٢٨ (٧٤٤ — ٧٤٦ م) . غير أن مروان اشتغل باخضاع القائمين بهذه الفتن القريبة من دار ملكه عن افريقية والاندلس ، فاضطربت الأحوال فيهما وهاجت العصبية بين المضرية (القيسية) وبين اليمانية ، فأخذت سلطة الامويين تتقلص عن تلك الأصقاع النائية . وكذلك اشتغل مروان بذلك عن غزو أرض الروم وعن صد الغزوات الرومية على تخوم الشام .

(٤) التسويد (إعلان الدعوة العباسية)

التسويد نشر العلم الاسود ولبس الثياب السود ، وهو الشعار الذي اتخذه دعاة بني العباس تمييزاً لأنفسهم وأتباعهم من بني أمية وأتباعهم الذين كانوا قد اتخذوا « البياض » شعاراً لهم .

ظلت الدعوة العباسية سرية حتّى رمضان من سنة ١٢٩ (أيار ٧٤٧) حينما أمر أبو مسلم الخراساني « بالتسويد » ولَبس أتباعه السواد جهراً ، فكان ذلك بدءاً لإعلان الدعوة العباسية . ومن ذلك الحين وقع القتال المنظّم بين بني أمية وبين أتباع بني العباس .

ثم ان الدعوة كانت حتّى ذلك الحين الى « الرضا من آل محمد » . ولم يكن أبو مسلم قد كشف بعد عن أنه يعني بآل محمد أبناء العباس لا ابناء ابي طالب — والعباس وأبو طالب عمّان للرسول . الا أن الاعتقاد الذي كان

سائداً بين الناس يومذاك كان واضحاً : هو أن الأمر سيؤول الى أحد أبناء علي بن أبي طالب . وكان العباسيون أنفسهم يوهمون الطالبيين بذلك .

ولما وقعت الحرب بين المسوّدة وبين بني أمية فوّض ابو مسلم أمر الحرب الى قَحْطبة بن شَبيبٍ الطائي . ثم ان المسودة اخذوا يستولون على خراسان بلداً بلداً ، بينما كان الامويون يتراجعون شيئاً فشيئاً نحو الغرب . ولقد استنجد نصر بن سيّار والي خراسان بمروان الثاني فلم يستطع مروان الثاني انجاده . ولما بلغ تراجع نصر بن سيار مَرْو عاصمة خراسان مرض هنالك وتوفي في ربيع الأوّل ١٣١ (تشرين الثاني ٧٤٨) .

ثم ما زال قحطبة يتقدم حتى بلغ العراق ، فحاربه والي العراق يزيد ابن عمر بن هبيرة ولكنه انهزم (المحرم ١٣٢ =آب ٧٤٩) . وكذلك قتل قحطبة في تلك المعركة نفسها ، فقام بالأمر بعده ابنه الحسن بن قحطبة ، واحتل الكوفة . وهنا أعلن ابو مسلم ان الخلافة لآل العباس ، وان الخليفة عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس الذي عرف فيما بعد « بالسفاح » ، فبُويِع له بالخلافة في الكوفة .

(٥) معركة الزاب

كان قحطبة قد أرسل من مدينة نهاوند (فارس) أحد قواده أبا عَوْنٍ الازدي ، فلقي عبدَ الله بن مروان بن محمد على الزاب الأصغر ، أحد روافد دجلة ، فهزمه في ذي الحجة من سنة ١٣١ (آب ٧٤٩) . فخف حينئذ مروان الثاني نفسه على رأس جيش عدده مائة وعشرون ألفاً ، ولم يكن مع ابي عون سوى عشرين الفاً . ولكن السفاح انجد ابا عون بجيش من أهل الكوفة عليه عمه عبد الله بن علي . فلما وصل عبد الله بن علي الى مشهد المعركة عسكر على الضفة الشرقية من نهر الزاب الأكبر (جنوب الموصل) ، بينما كان مروان الثاني على الضفة الغربية .

قطع مروان بن محمد الزاب ليباغت العباسيين ، ولكنه وجد أن قلوب

أصحابه متفرقة ، فأحب ان يُحمسهم ، ولكنه ارتكب خطيئة فادحة اذ أعلن لهم ان معه في خيمته أموالاً سيوزعها عليهم بعد المعركة . طمع الجند بالمال ورجعوا نحو الخيمة فوقعت فيهم الفوضى فالهزيمة (١١ ربيع الثاني ١٣٢ = ٢٥ كانون الثاني ٧٥٠) . وكان من غرق في نهر الزاب من الامويين اكثر ممن قتل منهم بالسيف .

مقتل مروان بن محمد

وكان ممن نجا بنفسه مروان بن محمد فهرب الى مصر ، ولكن جنود العباسيين أدركوه في قرية من قرى الصعيد اسمها ابو صير (بوصير) فقتلوه (٢٦ ذي الحجة ١٣٢ = ٥ آب ٧٥٠) . وهكذا زالت الدولة الأموية من المشرق .

صُورَة الحَيَاة في العَصْر الأموي

نظام الحكم والادارة

كان شكل الحكم في الدولة الاموية «مُلكاً مطلقاً يرتكز في ظاهره على الوازع الديني». أما أنه مُلْك فلأن الخلافة كانت قد انقلبت من شورى صحيحة الى شورى شكلية، وأصبح انتقالها من خليفة الى خليفة بالارث. وأما انه كان مطلقاً فلأن الخليفة لم يكن يتقيد في حكم البلاد الاسلامية وادارتها بدستور موضوع، ولم يكن هنالك مجالس ثابتة رسمية. ولقد كانت السلطات الثلاث: التنفيذية والتشريعية والقضائية تجتمع في شخص الخليفة. وأما ان هذا الملك كان يرتكز **في ظاهره** على الوازع الديني فلأن الخلافة الاموية كانت **في ظاهرها** تتمة لدولة الخلفاء الراشدين، ولا عبرة بالبَيْعة الدينية التي كانت تسبق تنصيب الخليفة الأموي الجديدة، ولا بالأيمان التي كان يقسمها المبايعون «اذ كان الإكراه فيها اكثر وأغلب».

وهكذا كان الخليفة الأموي رئيس الدولة والمتشرع والقاضي والقائد في الجيش والامام في المسجد. ومع أن الخليفة الأموي لم يُرِدْ احياناً ان يتحمل جميع هذه التبِعات، أو لم يستطع ذلك، فانه كان دائماً يعين الذين يجب ان يقوموا بها رأساً تعييناً شخصياً. وكان جميع القضاة والولاة والقواد مسؤولين تجاهه.

ولما تولى الفرع المروانيّ الخلافة جعل ولاة الأمصار كلهم من أهل البيت المالك (ما عدا العراق. ولكن اتفق ان كان في العراق قبل الحجاج بشر بن مروان، أخو عبد الملك). والظاهر من هذه السياسة ان الخليفة كان يريد

ان يجعل ولاة الأمصار من اعضاء أهل البيت المالك ليصرف أولئك الأعضاء عن التفكير في طلب الخلافة اذا كان قد سبق لهم ان فكروا فيها .

وكان جميع الخلفاء الامويين عرباً اقحاحاً ، من جهة الأب والأم ، ما عدا يزيد الثالث (ابن الوليد بن عبد الملك بن مروان) فانه كان ابن أمــة .

ولاية العهد

ومع ان معاوية قد جعل الخلافة وراثية فانه لم يكن هنالك نظام ثابت لتوارث الملك . لقد كان المفهوم منها ان تنتقل الخلافة دائماً الى أفضل فرد في الاسرةالاموية الحاكمة ، وليس من الضروري ان تنتقل من الأب الى ابنه — وان كان اكثر الخلفاء قد حرّصوا على نقلها الى ابنائهم — فقد انتقلت من معاوية الى ابنه يزيد ، كما انها انتقلت من الوليد الى أخيه سليمان ثم انتقلت من سليمان الى ابن عمه عمر بن عبد العزيز .

ويدافع ابن خلدون عن ولاية العهد (مقدمته ٣٨٧) بأن ولاية العهد (أي مجيء خليفة بعد آخر) كانت الشورى المطلقة بين جميع المسلمين حينما كان « الوازع الديني » قوياً جداً في النفوس ، فكان الجميع يتوخَّوْنَ المصلحة العامة . أما بعد ان ضعف الوازع الديني وقوي الوازع العصباني (وازع العصبية) ، فلو عهد (خليفة) الى غير من ترتضيه العصبية لَرُدّ العهد وانتقض أمره (أمر العهد) وصارت الجماعة الى الفرقة والاختلاف . والذي دعا معاوية لإيثار ابنه يزيد بالعهد دون سواه (مع انه كان يومذاك في غير بني أمية ، وفي بني أمية أنفسهم ، من هو أفضل من يزيد) انما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس واتفاق اهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد عليه حينئذ مِن بني أمية ، إذ بنو أمية يومئذ لا يَرْضَوْنَ سواهم — وهو عِصابة قريش ، وأهلُ الملة اجمعُ وأهل الغَلَبَ منهم . فآثره بذلك دون غيره ممن يُظن أنه أولى بها ، وعَدَل عن الفاضل الى المفضول حرصاً على الاتفاق واجتماع الأهواء الذي شأنه أهمّ عند الشارع ... » .

السلطة التشريعية :

لم يكن في الاسلام سلطة تشريعية ولا جاز ان يكون هنالك مثل هذه السلطة ، لأن القرآن الكريم كان شريعة منزلة ، وكان الحديث الشريف متمماً لتلك الشريعة . وعمل الخليفة كان تنفيذ الشريعة المنزلة ، لا وضع شرائع جديدة .

ولكن الفقهاء كانوا أحياناً يختلفون في تأويل بعض الآيات او تفسير شيء من الحديث فنشأت حاجة الى « المجالس الخاصة » ، وهي ان يدعوَ الخليفة بين حين وآخر نفراً من الصحابة أو التابعين أو بعض العلماء المعروفين يسامرهم في الأدب والفقه والسياسة والأخبار ليتفقه منهم في بعض وجوه السياسة والادارة أو ينظر في الحقيقة الى حاجة الدولة الاسلامية في أقطارها المختلفة . وقد كان الخليفة أحياناً يستقدم الوفود من البلدان المختلفة يستخبرهم احوالَ بلادهم ، كما كان يفعل معاوية وعبد الملك وعمر بن عبد العزيز . وكثيراً ما كان الخليفة يعتمد على الولاة انفسهم في ذلك .

وقد تَعرِض مشكلة خاصة فيجتمع بنو أمية — كما فعلوا في الجابية بعد موت معاوية بن يزيد — أو يجتمع الخليفة ببعض زعماء الأقطار كما اتفق لعبد الملك حينما عظمت نقمة العراقيين على الحجاج ، أو كما اتفق في مناظرة عمر بن عبد العزيز للخوارج وفي استدعائه وفداً من سكان بلاد ما وراء النهر . وهكذا نرى ان الحاجة مسّت منذ أيام بني أمية الى تقليب النظر في أحوال البلاد في الناحية السياسية والناحية الدينية ايضاً .

القصر والمسجد

ولم يكن للحكومة مكان خاص مستقل ، بل كان الخليفة يباشر الأعمال في بيته . وكذلك كان يفعل الوالي . وكان معاوية يستقبل مساعديه ووزراءه في بيته الخاص الملاصق للجامع الأموي ، وكان سريره أيضاً في بيته . أما القضاء فكان الخليفة يباشره في المسجد لا في بيته . فبيت الخليفة اذن كان

مستقر السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية (أي القصر)، وأما المسجد فكان المحكمة.

ولقد درج الخلفاء كلهم الى أيام بني العباس على ان يكون القصر ملاصقاً للمسجد كما نرى في دمشق وبغداد. وعلى هذا سار الولاة ايضاً كما نرى في الكوفة حيث نجد المسجد لصيق دار الأمارة، وكما نرى في واسط.

السلطة التنفيذية

كان الخليفة يدير البلاد الاسلامية شخصياً أو كان يعين من قبله من يدير بعض المقاطعات أو الأعمال. على ان الأمويين لم يفصلوا تماماً بين أعمال هؤلاء الولاة والقضاة والقواد، فالمهلب لم يكن قائداً فقط بل كان والياً وعاملاً ايضاً، وكان له حق التصرف بما يجبي من أموال البلاد التي في المشرق، وبأن يدير مقاطعته ويعين لها في حياته أو بعد موته من يشاء. وكذلك الحجاج فقد عينه عبد الملك والياً على العراق، ولكنه كان يفصل في الدعاوى ويعاقب ويقضي ويقود الجيوش ويوجهها الى الفتح ويعين الولاة على البلاد التي فتحتها جيوشه.

غير أن أحوال الحياة والحكومة كانت في أيام بني أمية قد تشعبت وجوهها، وأصبحت البلاد بحاجة الى ما يسمى اليوم بالوزارة. فاتخذ الأمويون منذ أيام معاوية المساعدين أو الوزراء كما كانوا يدعون أيضاً: فآلُ المهلب والحجاجُ كانوا من وزراء بني أمية لا بمعنى ان منصب الوزارة كان قد أصبح محدوداً معروفاً، بل بمعنى ان هؤلاء كانوا يساعدون الخلفاء ويقومون بجميع الأعمال التي يقوم بها الوزراء عادة في كل زمن.

وقبل التبسط في الإدارة الأموية يجب ان نعلم شيئاً عن الوزارة الى أيامهم: لا شك في ان العرب عرفوا الوزير بمعنى المساعد والشريك في الأمر، والذي يساعد في حمل الاعباء، كما جاء في قوله تعالى «واجعلْ لي وزيراً من أهلي: هرون أخي، اشدُدْ بهِ أزْري وأشرِكْه في أمري».

وكذلك رأينا في أيام الرسول ان ابا بكر وعمر كانا وزيرين لرسول الله

صلى الله عليه وسلم يستشيرهما في الملمّات ، ويساعدانه في تسيير الأمور . وكذلك كان عمر وزيراً لأبي بكر . ثم جاء عثمان بن عفان فكان مروان بن الحكم كاتباً له وأميناً ينفذ عنه كل ما شاء . ولم يتأخر الامام علي عن استشارة بعض اعوانه من الصحابة في كثير من الأمور .

فلما جاء بنو أمية اختاروا مساعديهم من أهل الدنيا لا من أهل الدين ، كعمرو بن العاص وزياد بن أبيه وعبيد الله بن زياد والحجاج بن يوسف . وهكذا اخذت الادارة الاسلامية منذ أيام الامويين تكتسب الصبغة السياسية الحديثة . غير أنها عادت في أيام عمر بن عبد العزيز سيرتها الدينية الاولى ، فقد كان لعمر ثلاثة نفر يأخذ بآرائهم في كل شيء هم أخوه سهل ، وابنه عبد الملك ، ومولاه مزاحم ، وكان اتّجاه هؤلاء دينياً مثل اتجاه عمر بن عبد العزيز لا دنيوياً كاتجاه زياد والحجاج .

وكان **معنى الوزارة في بني أمية** « حجب العامة عن الخليفة والقيام بالأعمال الإدارية » . قال ابن خلدون (مقدمته ٤٢٦) : « وقد جاء ان عبد الملك لما ولى حاجبه قال له قد وليتك حجابة بابي الا عن ثلاثة : المؤذن للصلاة فانه داعي الله ، وصاحب البريد فأمرٌ ما جاء به ، وصاحب الطعام لئلا يفسد . ثم استفحل الملك بعد ذلك ... وكانت الوزارة أرفع المراتب في دولة بني أمية ، وكان النظر للوزير عاماً في أحوال التدبير والمفاوضات وسائر أمور الحمايات والمطالبات وما يتبعها من النظر في ديوان الجند وفرض العطاء بالأهلية وغير ذلك » .

رأس السلطة التنفيذية

تشمل السلطة التنفيذية اليوم « الوزارة التي تقوم بتنفيذ ما تقره السلطتان التشريعية والقضائية » باسم الملك في البلاد الملكية وباسم الشعب في البلاد الجمهورية . أما صدر الاسلام فقد كانت هذه السلطات مجتمعة في شخص الخليفة . ومع أن معاوية اتخذ المساعدين والوزراء ، فانه لم يتخلَّ عن النظر شخصياً في أمور الدولة ، لقد كان يستعرض الشؤون العامة مرتين كل يوم على

الأقل: اذ يدخل عليه وزراؤه في الصباح على الطعام فيكلمونه فيما يريدونه من يومهم الى العشيّ ، ثم يدخلون علية بعد صلاة العشاء فيذاكرونه فيما أرادوا وأصدروا من ليلتهم . (مروج ٢ : ٣٢٠ ، ٣٣٢ ، و ٣ : ٢٥١) .

ولكن الخليفة منذ أيام الخلفاء الراشدين كان قد شعر باستحالة الاشراف على الأعمال ، فانشأ الدواوين المختلفة . فلما جاء معاوية كان في الاسلام اربعة دواوين : ديوان الرسائل وديوان الجند وديوان الناس وأعطياتهم وديوان الخراج . ثم أوجد معاوية ديواناً خامساً جديداً هو ديوان الخاتم .

وكانت الخواتم في خزائن الملوك لا تدفعها الى الوزراء . فاطّرد الأمر على ذلك حتى ملك بنو أمية وأفرد معاوية ديوان الخاتم وولاه عُبيدَ بن أوس الغساني وسلم الخاتم اليه ، وكان (منقوشاً) على فصّه « لكل عمل ثواب » . وكان سبب ذلك ان معاوية كتب لعمرو بن الزبير الى بعض عماله بمائة الف درهم ، ففرق عمرو الهاء وجعلها ياء ، وأخذ مائتي الف درهم . فلما مرت الرقعة بعدئذ بمعاوية ذكر انه لم يَصِلْه الا بمائة الف درهم . فأحضر العامل الكتاب ، فوقف معاوية على الأمر فأتخذ ديوان الخاتم (١) .

وفي أيام يزيد بن الوليد أصبح للخاتم ديوانان : ديوان الخاتم الكبير وديوان الخاتم الصغير .

ثم كانت الحاجة قد دعت ، منذ صدر الدولة الأموية ، الى دواوينَ جديدة لوجوه الحياة التي استجدت ، فقد رأينا في أيام الوليد بن عبد الملك كاتباً يكتب له على المستغلاّت بدمشق . وفي أيام سليمان كان عبد الله بن عمرو بن الحارث يكتب على النفقات وبيوت الأموال والخزائن والرقيق . وفي أيام هشام كان قُبيصة بن ذؤيب يتولى ديوان الصدقة . والكتابة على الصدقة قديمة ، كانت منذ أيام الرسول ، ولكن لم يكن لها ديوان . ثم كان هنالك ديوان الخاصة ، أي الديوان الذي يتولى الاشراف على الأموال والأراضي

---

(١) الصولي ، ادب الكتاب (المكتبة العربية ببغداد ، المطبعة السلفية بمصر ١٣٤١ ص ١٤٣) .

الخاصة بالخليفة . وربما كان لولي العهد كاتبه الخاصّ به .

وكذلك كان في الأمصار دواوين محلية على غرار تلك التي في العاصمة . أما الدواوين الرئيسية في الدولة الأموية فكانت التي تلي :

(١) ديوان الرسائل : ديوان الرسائل يشبه رئاسة الوزراة في أيامنا . فرئيس ديوان الرسائل ، ويسمّى الكاتب ، ينشىء الرسائل التي يبعث بها الخليفة الى الولاة والعمال والملوك الآخرين ، ويتلقى الرسائل التي ترد الى الخليفة . وقد كان الكاتب في أول أمره موظفاً بسيطاً لا تتعدى وظيفته استملاء الرسائل من الخليفة . حتى ان بعض الخلفاء ، كعمر بن عبد العزيز كان يكتب رسائله احياناً بيده . ولكن لما تشعبت أمور الدولة أخذ الخليفة يعتمد على كاتبه شيئاً فشيئاً ، « فقد كان قبيصة بن ذؤيب يكتب لعبد الملك ، وبلغ من لطافة محله منه انه كان يقرأ الكتب الواردة على عبد الملك قبل ان يقرأها عبد الملك ، وكان له ذلك عادة » . وقد تساهل سليمان بن عبد الملك وأمر كاتبه ان يوقّع عنه في رسالة وردت من مَسلمة بفتح بعض بلاد الروم . ثم أصبح الكاتب مأموناً في كل ما يكتب ، ولا يفعل الخليفة اكثر من أن يوقع فقط . ولذلك كثيراً ما كان الكتاب يتلاعبون بالأمور . فقد « حُكي ان هشاماً أُقْطِعَ قبل ان يلي الخلافة (ربما في أيام يزيد بن عبد الملك) ارضاً يقال لها دورين . فأرسل في قبضها فاذا هي خراب . فقال لذُويد — كاتب كان بالشام — وَيحَك ، كيف الحيلة ! فقال (ذويد) ما تجعل لي؟ فقال هشام : اربعمائة دينار . فكتب (ذويد) : « دورين وقراها » ، ثم امضاها في الدواوين . فأخذ هشام شيئاً كثيراً ... ولقد حصّل الكتاب انفسهم من مناصبهم اموالاً جليلة . وبلغت الجرأة بالكتاب ان قطن مولى يزيد بن الوليد ، وكان يتولى ديوان الخاتم والحجابة ، كتب على لسان الخليفة يزيد بن الوليد كتاباً بولاية العهد لابراهيم بن الوليد وقرأه على الناس فبايعوا لابراهيم على رغم ارادة الخليفة المُحتَضَر .

وقبل ان ينقضي العصر الأموي كانت الكتابة قد أصبحت صناعة ذات

قواعد وأصول (في أيام عبد الحميد الكاتب، كاتب مروان الثاني)، وأصبح الكاتب كأنه وزير له رأي في أمور الدولة وله سلطة عظيمة في تسييرها.

وقد جعل سليمان للكتابة هيبة فأمر ان يُكتَتَب في الطوامير — القراطيس الكبيرة (الأوراق الرسمية) — بخط حسن كبير منمق. فلما جاء عمر بن عبد العزيز رأى ان ذلك اسراف فأمر بالاقتصاد بالقراطيس، وبأن يُجْعَل الخط ناعماً رقيقاً.

ولقد حرّص الخلفاء كلهم على ألا يتناول الكُتّاب الهدايا لئلا يحملّهم ذلك على الخيانة في أموال الدولة وأمورها. ومع كل هذا الحرص فقد وقع في أعمال الدولة كثير من المحذور، وكذلك المجمع الخلفاء على عزل الكاتب اذا قبل الهدية.

وكان هذا الديوان يكتب، منذ ايجاده، باللغة العربية.

(٢) ديوان الجند: كان الجهاد ركناً من أركان الدعوة الاسلامية. وكان الناس يتطوعون للذهاب الى الفتوح تطوعاً حراً بلا قيود لاسمائهم ولا أُعْطِياتهم ولا للغنائم التي يأخذونها. وظل الأمر كذلك حتى أوجد عمر بن الخطاب ديوان الجند وهو في الحقيقة سجل للجيش. أما الذي دعا عمر الى ايجاد هذا الديوان فهو «ان الهرُمزان لما رأى عمر يبعث البعوث بلا ديوان قال له: ومن يعلم بغيبة من يغيب منهم؟ فان من تخلف أخلّ بمكانه، وانما يضبط ذلك الكتاب». فأوجد عمر ديوان العساكر الاسلامية على ترتيب الانساب مبتدئاً من قرابة رسول الله وما بعدها الأقربِ فالاقلِ قرباً، وذلك في المحرم من سنة عشرين (كانون الثاني ٦٤١).

(٣) ديوان الناس وأعطياتهم: هذا الديوان يشبه ديوان الجند، وقد يستنتج من بعض الأقوال انهما واحد. وهـذا الديوان من وضع عمر الخطاب أيضاً. يقال ان أبا هُريرة أتى من البحرين بمال فاستكثروه وتعبوا في قسمته، فسَموْا الى احصاء الأموال وضبط العطاء والحقوق فأشار

خالد بن الوليد بالديوان وقال : رأيت ملوك الشام يدوّنون . فقبل منه عمر ذلك الرأي .

(٤) ديوان الخراج : الخَراج هو الضريبة التي تؤخذ على الأرض . وقد اختلف العلماء في تحديد الخراج ، ولكن الذي يبدو لنا من المصادر ان ديوان الخراج لم يكن فقط للخراج وانما كان لوجوه الأموال كلها ، أي أنه كان ديواناً لانواع الضرائب التي كانت الدولة تجبيها . ولما دخلت بلاد الشرق الأدنى في الامبراطورية الاسلامية كان هذا الديوان موجوداً ويكتب بلغة البلاد المفتوحة » ؛ وبقي بعد الاسلام على ما كان عليه من قبل : ديوان العراق بالفارسية ، وديوان الشام بالرومية ، وديوان مصر بالقبطية . وقد كان الذين يكتبون في هذه الدواوين من الذين يعرفون الفارسية أو الرومية او القبطية ، ومن غير المسلمين ايضاً : كان سرجون بن منصور الرومي النصراني يكتب على ديوان الخراج منذ أيام معاوية الى أيام عبد الملك . وكتب لمعاوية على ديوان خراج حمص ابنُ أثال النصراني . وكان يكتب لمسلم بن زياد ، والي يزيد على خراسان ، اسطفانوس . وكان يكتب لعبد العزيز بن مروان والي مصر ايناس بن خمايا ، وهو من أهل الرها . وقد كتب على ديوان الخراج رجال من الفرس دخل اكثرهم الاسلام امثال زادويه والد عبد الله بن المقفع ، وسارزاد وزادان فرّوخ كاتب الحجاج بن يوسف .

وأخيراً أراد عبد الملك تعريب الامبراطورية لأسباب كثيرة .

أ ــ اعتقاد المسلمين ان اللغة العربية لغة الدين وأشرف اللغات ، فلا يجوز أن تظل سجلات الدولة العربية المسلمة تكتب بغير لغتها .

ب ــ كانت كتابة الدواوين بغير اللغة العربية حائلاً دون مراقبة السجلات .

جـ ــ كان الذين يديرون الدواوين في الأغلب من غير المسلمين .

د ــ قويت النزعة القومية العربية في الدولة الأموية فلم يكن الامويون يرضَوْن باستعمال لغة غير عربية في حكومتهم .

وهكذا خطر لعبد الملك منذ سنة احدى وثمانين للهجرة (٧٠٠ م) ان ينقل الدواوين الى اللغة العربية ، فأمر سليمانَ ابن سعد بنقل ديوان الشام . فطلب سليمان مقابل ذلك خراج الاردن عاماً واحداً (١٨٠ الف دينار) . وقد تم نقل ديوان الشام في عام واحد . وأما في العراق وسائر المشرق فكانت الدواوين بالفهلوية ، وكان يكتب على ديوان العراق زادان فروخ بن بيري ، وكان له معاون اسمه صالح بن عبدالرحمن وهو فارسي الأصل ايضاً . ثم ان زادان فروخ قتل في اثناء فتنة ابن الأشعث ، فلما بدا للحجاج نقل الدواوين عهد بذلك لصالح فنقلها سنة ٧٨ هـ ، أي قبل ان ينقل ديوان الشام بثلاث سنوات .

وبعد نقل الدواوين الى العربية ظل فيها نفر من الموظفين من المسيحيين او الصابئة أو المجوس الذي كانوا قد اتقنوا العربية . ولكن عمر بن عبدالعزيز أمر ان يعين مكانهم موظفون مسلمون .

ويتبع ديوان الخراج أنواع العملة ، فقد كان المسلمون إلى أيام عبدالملك يستعملون النقود اليونانية أو الفارسية ، وهي مختلفة الأوزان والقيَم ، فاتخذ المسلمون عياراً وسطاً وجعلوا الدرهم أربعة عشر قيراطاً فضةً . ثم أنهم ضربوا الدينار من الذهب ، وذلك سنة ٧٤ أو ٧٥ هـ (٦٩٣ م) . ولكن هذه الدنانير وضعت موضع التداول عام ٧٦ هـ . ويقال ان مصعب بن الزبير ضرب الدراهم والدنانير قبل ذلك ، في سنة ٧٠ ، بأمر من أخيه عبدالله . وفي سنة ٧١ ضرب الحجاج الدراهم باسمه . ولم يجعل المسلمون في نقوش النقود صوراً بل كلمات من كتاب الله .

ونأتي الآن الى أحكام ديوان الخراج عامة ونظام بيت المال في عهد بني أميه . ويجب ان نلاحظ أولاً ان مصادر بيت المال قد نقصت في بعض النواحي كالزكاة والصدقة وزادت في بعضها كالضرائب التي أخذها الأمويون ولم ينص عليها الدين . ثم ان الانفاق من بيت المال أصبح تابعاً لهوى الخليفة لا للشريعة . وكذلك أصبح للخليفة ولأعضاء البيت المالك

رواتبُ باهظة من بيت المال .

اولاً – مصادر بيت المال :

أ – الزكاة : وهي مبلغ اثنين ونصف بالمائة من المال المجموع (ومن الحيوان وثمار الأرض) اذا مر عليه عام من غير ان يتعلق به دين . وقد قل ورود الزكاة الى بيت المال لأن نفراً من الناس لم يكونوا يرون بَيْعة بني امية صحيحة ، فلم يكونوا يرسلون زكاتهم الى بيت المال بل كانوا يَهَبونها بطريقة خاصة ، مع ان بعض الفقهاء أجاز تسليمها لبني امية وولاتهم .

ب – الصدقة : وهي التبرع الحر بالأموال في وجوه الاحسان . وقد قلت الصدقة كالزكاة وللسبب نفسه .

ج – الغنائم : كان الخمس من الغنائم (الأموال والأشياء المنقولة التي تغنم في الحرب) يذهب الى بيت المال . والجزية داخلة في الغنائم .

د – العُشر : يؤخذ من أصحاب الأرض الذين اسلموا عند الفتح ، تبقى الأرض ملكاً لهم ويدفعون عنها عشراً فقط . فالعشر اذن زكاة ما تنبت الأرض ، وهو يؤخذ من المسلمين . وبعض الفقهاء كانوا يرون ان الأرض يكون عليها إما خراج وإما عشر . وبعضهم كان يقول بأن الأرض يجب ان تدفع خراجها على مساحتها ثم عشراً على ما تنبت من الحب خاصة . ويؤخذ العشر من المسلمين ، أما الخراج فيؤخذ من الذميين . فاذا أسلم رجل ذمي تخرج أرضه من الخراج الى العشر . فالخراج اذن ضريبة والعشر صدقة . واذا استأجر ذمي أرضاً من مسلم فلا يدفع المسلم عشرها لأن النتاج ليس له ، ولا يدفع الذمي خراجاً لأن الأرض ليست له – بل يكتفي منه بالجزية .

هـ – الخَرْج : اذا فتحت بلاد ما صلحاً وأتفق العرب مع أهل البلاد (الذين لم يسلموا) على مبلغ معين يدفع في كل عام ، فان الارض تبقى حينئذ لاصحابها ويكون لبيت المال ذلك المبلغ الذي اتفق الفريقان عليه .

و ـ الفيء : وفي حكمه خلاف بين الائمة . ولكن الأرض التي تفتح عَنوة تكون أرض فيء : تكون الارض نفسها للمسلمين بمعنى انه لا يجوز لاصحابها بيعها ولا الانتقال منها ، بل تعتبر الارض وقفاً وأهلها رقيقاً ونتاجها لبيت المال .

ز ـ الخراج : الخراج ، ويسمى الطسق أيضاً ، وهو يشبه الفيء من الناحية العلمية على اعتبار ان الأرض تبقى ملكاً لاصحابها ولكن أصحابها يدفعون الخراج عنها بحسب مساحتها . فهم يدفعون عن كل جريب درهماً نقداً وقفيزاً من نتاجها . أما اذا أصاب الغلال آفة او غرقت الأرض فان الخراج يسقط عن صاحبها . وبهذا يختلف الخراج من الخرج ، لأن الخراج نسبة ثابتة معلومة بينما الخرج مبلغ متفق عليه لا علاقة له بقياس الأرض ولا بخصبها ولا نوع ثمرها ،

ح ـ الجزية : الجزية ضريبة تؤخذ عن الاشخاص من غير المسلمين اطلاقاً (من أهل الكتاب : اليهود والنصارى ، ومن أُنْزل منزلتهم من المجوس والصابئة ، كما تؤخذ أيضاً من المشركين الذين يعددون الآلهة ومن عبدة الأوثان) . وتؤخذ الجزية من الذكور البالغين الاصحّاء الذين يتكسبون (ولا تؤخذ من الاطفال والنساء وذوي العاهات والرهبان ولا من الطاعنين في السن) . أما مقدار الجزية فكان مبلغاً ثابتاً مقطوعاً (مهما كانت ثروة الذي تستحق عليه) . وقد جعلت الجزية على ثلاث مراتب : أربعةَ دنانير في العام على الموسرين ، وديناربن على متوسطي الحال ، وديناراً واحداً على من دونهم . ويمكن تقسيم الجزية أقساطاً أو تأجيلها الى زمن الغلة . أما الذي يُسلم فتسقط عنه الجزية . وإذا اتفق أن ذمياً تأخر عن أداء الجزية عاماً أو أكثر ثم أسلم ، فان الجزية المتأخرة تسقط عنه أيضاً .

والعَرَبُ لا تُقْبَلُ منهم الجزية ، فقد أمر الاسلام بأن يُقاتل العرب على الاسلام (أي يقاتلوا حتى يدخلوا في الاسلام وألاّ يُقْبَل منهم غيرُه) . وقد استثنى عمر بن الخطاب من ذلك قبيلة تغلِبَ النازلة في العراق ،

وهم عرب كانوا على النصرانية ، استثناء موقتاً ، فأخذ منهم الزكاة مضاعفة (خمسة بالمائة) وسكت عن بقاء المعاصرين له منهم على النصرانية ، ولكن شَرَط عليهم ألا يصبغوا أولادهم بالنصرانية (ألاّ يعمّدوهم) . وقد أثاب عمر بن الخطاب بني تغلب بذلك لأنهم حاربوا الفرس يوم القادسية في صفوف المسلمين .

وبما أن الناس كانوا يدخلون في الاسلام تباعاً وباستمرار ، فان عدداً من مصادر الأموال الواردة الى بيت المال — كالجزية والخراج — قد قل الوارد منها ، مع الأيام ، أو انقطع . عندئذ عمد الامويون الى زيادة الجزية على الباقين على غير الاسلام فجعلوها خمسة دنانير . ثم بدّلوا في الجزية والخراج وسَمّوْا ما استحدثوا منهما عشراً وزادوا في مبالغهما ثم ضربوها كلها على المسلمين ، حتى ثار المسلمون في مصر والعراق خاصة واحتجوا لثورتهم بأن الولاة يأخذون منهم الجزية .

وهكذا نرى جباية الأموال في أيام الأمويين — حاشا عمر بن عبدالعزيز — تكتسب طابعاً سياسياً دنيوياً وتخسر صفتها الدينية . وكذلك وجوه النفقات عند الامويين لم تكن مقيدة بما كانت مقيدة به في أيام الرسول وأيام الخلفاء الراشدين ، بل أصبح بيت المال — بجميع ما يرد اليه — في ايدي الخليفة ينفقه في الوجوه التي يراها هو موافقة لمصلحة الدولة أو لمصلحة الأسرة المالكة أو لمصلحته هو نفسه .

القضاة

لم يكن للمسلمين قوانين موضوعة ، بل كان لهم شريعة نزلت مجملة في القرآن الكريم ثم فصّلت في الحديث . وعلى ذلك لم يكن للقاضي في أول الأمر الا النظر في القضايا والدعاوى وتطبيق أوامر الدين ونواهيه عليها . وكان الرسول يباشر القضاء بنفسه في المدينة . فلما انتشر الاسلام في شبه جزيرة العرب ثم وصل الى اليمن جعل الرسول نفسه يستقضي الجلّة من

الصحابة . ثم ان عمر ابن الخطاب جعل القضاء منصباً مستقلاً بنفسه عن الخلافة نفسها .

وكان عمل القاضي ، في أول الأمر ، لا يتجاوز « الفصل بين الخصوم » . ثم أضيفت اليه مع الأيام أمور تشبه ما نعرفه اليوم من أعمال القضاة .

رد المظالم

غير أن الخلفاء احتفظوا بالنظر في المظالم .

قد يتعرض بعض الناس (مسلماً كان أو غير مسلم) لظلم لا يستطيع القاضي أن يدفعه : كأن يظلم أحد الامراء شخصاً ما ، أو يشتطّ والٍ في عقاب رجل أو مضايقته ، أو لا يرضى مستقض بحكم القاضي ، ويسمى العرب ذلك ظُلامة أو مَظلمة . عندئذ يرفع المظلوم أمره الى الخليفة . وكان الخلفاء الراشدون وخلفاء بني أمية يجلسون في المسجد ، إما كل يوم أو أياماً معدودة في الاسبوع . وكان الخليفة عموماً يرد كل مظلمة (أي ينصف كل متظلم) . الا أن الغالب في رد المظالم كان إرضاء للمظلوم اكثر منه عقاباً للظالم .

ويدخل في نطاق المظالم « كل ما عجز عنه القضاة أو غيرهم (من الولاة مثلاً) من امضائه كالنظر في البينات والتقرير واعتماد الأمارات والقرائن ، وتأخير الحكم الى استجلاء الحق ، وحمل الخصمين على الصلح واستحلاف الشهود ؛ وذلك أوسع من نظر القاضي . ومع ذلك فان عمر بن الخطاب كان قد فوض قاضيه أبا ادريس الخولاني النظر في المظالم ، لتشعب وجوه السياسة والادارة منذ ذلك الحين . ولا ريب في أن تخلي الخلفاء الامويين عن النظر في المظالم — حاشا عمر بن عبدالعزيز — كان أكثر .

الحياة الاجتماعية

ضمت الدولة الاسلامية شعوباً مختلفة الأديان والأجناس والألوان ،

١ – العرب المسلمون :

كان العرب المسلمون أرقى طبقات البيئة الاجتماعية على قلة عددهم بالإضافة الى غيرهم ، إذ كانوا الطبقة الممتازة في الحياة الاجتماعية والادارية والسياسية . لقد كان منهم الشعراء والقواد والأمراء . وكانوا كلهم يتناولون أعْطِيات من بيت المال . وقد كان العرب عصبيتين : عرب الشمال وعرب الجنوب . وكذلك كان العرب قد انقسموا سياسياً منذ وفاة الرسول قسمين : أهلَ السنة والجماعة ثم الشيعة . ولكن التشيع ما لبث ان اتخذ اتجاهاً دينياً منذ ثورة المختار بن ابي عُبيد الثقفي .

٢ – الموالي ، أي المسلمون من غير العرب :

سوّى الاسلام بين المسلمين جميعاً بقطع النظر عما كانوا عليه قبل الاسلام . وعلى هذا كان كل من يدخل في الاسلام يجب ان يتمتع بجميع الحقوق والامتيازات التي يتمتع بها العرب المسلمون . وكان الموالي في أيام الدولة الأموية من شعوب مختلفة أشهرها : السند والترك والفرس والروم والبربر والفرنجة وغيرهم .

(آ) الولاء : وذلك ان غير العربي اذا دخل في الاسلام سعى الى ان يدخل في ولاء قبيلة عربية أو اسرة عربية أو أن ينتمي الى رجل عربي بالولاء والاسم : نحو ابي تمام الطائي (وكان رومياً) وأبو نواس الحكَمي (وكان فارسياً) ومسلم بن الوليد الانصاري وغيرهم .

(ب) الصناعة : ولما اختص العرب انفسهم بالشعر والامارة والقيادة تناول الموالي الصناعات المختلفة لمهارتهم فيها ولانصراف العرب عنها . وكذلك اشتغلوا بالتجارة .

(ج) العلم : وكذلك اشتغل الموالي بالعلم لأنهم كانوا من قبل أهل ثقافة علمية .

(د) الشعوبية : على ان العرب كانوا يعدون أنفسهم أرقى من الموالي ، وكثيراً ما جاهروا بذلك وأغاظوا الموالي جهلاً منهم . فنشأ في الموالي ردُّ فعل عنيف ، فجعل الموالي في أول الأمر يظهرون فضل أقوامهم على العرب . ثم انهم أخذوا يكرهون العرب . ثم جعلوا يهاجمون العرب ويحاولون القضاء على نفوذهم : تلك هي الشعوبية ، أي كره العرب وتفضيل غيرهم عليهم وانكار فضلهم .

٣ ــ المولّدون . المولّد من كان أحد أبويه عربياً والآخر غير عربيّ . وكان الغالب على المولّدين أن يكون آباؤهم عرباً وأمّهاتهم غير عربيّات ، وقلّ من كانت أمّه عربية وأبوه غير عربي لأن العرب كانوا لا يزالون في العصر الأموي يحرِصون على الاستعلاء العصبي فلا يُصهرون (لا يزوّجون بناتهم) لغير العرب .

وبانتشار طبقة المولّدين برزت الخؤولة غير العربية في مقابل العمومة العربية وبدأ الرابط العصبي يضعف ممّا زاد في قوة الشعوبية (راجع ص ١٤٩، ٢ د) .

٤ ــ أهل الذمة ، أي غير المسلمين من أهل الكتاب (أي اهل كتاب منزل) ، وهم اليهود والنصارى خاصة ، ثم جعل فيهم ايضاً الصابئة والمجوس . وكان النصارى خاصة شيعاً ، أشهرها :

(آ) شيعة أريوس : كان اريوس اسكندريا وقد أعلن مذهبه ٣١٠ م ، وكان يقول ان المسيح ليس الهاً ، بل خلقه الله من لا شيء ، وسائر البشر إخوته .

(ب) شيعة نسطور : ولد نسطور في مدينة مرعش ثم أصبح بطريركاً على مدينة انطاكية . وكان يقول ان مريم ليست والدة الله لأن الله لا يمكن ان يولد من انسان ، بل هي والدة المسيح . وهكذا جعل من المسيح اقنومين

(شخصين) مستقلين وابنين (احدهما من الله الآب والثاني من مريم) .
ولما انتشر مذهب نسطور التأم مجمع في مدينة أفسوس (باليونان) عام ٤٣١ م . وقد تقرر في هذا المجمع ان يكون في المسيح اقنوم واحد . وان ابن الله هو عينه ابن مريم من أول ساعة الحبل به .

(ج) شيعة أوطاخي : كان افتيثيوس اوطاخي ارشمندريت الرهبان في القسطنطينية عام ٥٤٠ م . وكان اوطاخي يتبع رأي نسطور ثم زاد على ذلك قوله : المسيح اقنوم واحد ولذلك كان فيه طبيعة واحدة : أما ناسوت المسيح (جسده) فليس من طبيعتنا (من طبيعة جسدنا) . ذلك لأن طبيعتي المسيح (الالهية والبشرية) امتزجتا واختلطتا وصارتا طبيعة واحدة . وإن المسيح تألم وصلب ومات وقبر في هذه (بهذه) الطبيعة الواحدة .

(د) شيعة يعقوب البردعي أو البرادعي ، وأتباعه يعرفون باسم اليعاقبة — كان يعقوب هذا في أول أمره من اتباع اوطاخي ، ثم زاد من عنده قولَه : ان جسد المسيح كان غير قابل للآلام . أما الذي ذاقه من الآلام فقد كان خيالياً لا حقيقة له . وكان يقول إن في المسيح طبيعةً واحدة . وتوفي يعقوب عام ٥٧٨ م (بعد مولد محمد رسول الله بثماني سنوات) .

(ه) سرجيوس بَحِيرا : كان راهباً نسطورياً في نجران الّتي هي قرب دمشق ، وكان يقول ان المسيح لم يصلب ولم يمت ولكن شُبّه به . وتوفي بحيرا عام ٦١٨ م (قبل الهجرة بأربعة أعوام) .

غير أن كثرة المشركين في فارس وفي بلاد ما وراء النهر وفي المغرب جعل التشدد في تعريف « أهل الكتاب » متعذراً . من أجل ذلك لم يكن بد من اقرار سياسة عملية ، وهكذا عُدّ مجوس البحرين (وهم فرس) ، منذ أيام الرسول ، في أهل الذمة . ثم عد الصابئة (وهم من أهل العراق) في أهل الكتاب أيضاً . ولم يكن بامكان الدوله الأموية أن تقاتل جميع المشركين على تخومها فاتخذت حيالهم سياسة الاكتفاء بالجزية (اذا كانت قادرة على أخذها) أو الاكتفاء بالمسالمة . ومع الأيام تحولت صِلات المسلمين

بالمشركين ، في المشرق والمغرب ، حرباً سياسية كالتي عرفناها في التاريخ بين الأمم التي تتنازع النفوذ على ما حولها من الأرض .

وكان أهـــل الذمة كلهم يعيشون في الدولـــة الاسلامية متمتعين بحرية الاعتقاد والعمل وهم مُعفَون من الجهاد يدافع المسلمون عنهم وعن أموالهم مقابل جزية يدفعونها عن أنفسهم وخراجاً يؤدونه عن أرضهم . ولكن لم يكن لهم أعطيات من بيت المال كالمسلمين ، ولا كان بامكانهم ان يحتلوا المناصب الكبرى في الدولة كالامارة والقيادة مثلاً . إلا أنه كان بامكانهم ان يعملوا في مصالح الدولة كالكتابة مثلاً .

٥ ــ الارقاء : جاء الاسلام بإلغاء الرق، فالمسلم لا يُسترق . واذا دخل الرقيق في الاسلام اعتق حالاً . ولكن يبدو ان القضاء على الاسترقاق بسرعة لم يكن ممكناً . فقد ظل بعض الأرقاء الذين دخلوا في الاسلام عبيداً حتى كاتبوا أسيادهم (اتفقوا معهم على بدل معين لعتقهم) . ومن القواعد التي كانت في صدر الاسلام فيما يتعلق بالرق :

ــ اذا تزوج عبد حرة فان أولاده يكونون أحراراً حتماً .

ــ اذا تزوج حر جارية رقيقة فان اولاده منها يمكن ان يكونوا أحرراً في الأكثر أو أرقاء له .

ــ اذا ولدت الجارية الرقيقة لسيدها غلاماً ذكراً أصبحت « أم ولد » لا تُباع ولا تُوهب . ثم اذا مات زوجها عنها أصبحت حرة .

وجاء الرقيق الى بلاد الدولة الاسلامية إما عن طريق الفتوح بالأسْر أو عن طريق الأسواق بالشراء من جميع أقطار العالم . وقد يبلغ ثمن العبد اذا كان صَقْلَبياً (اوروبياً أبيض من سكان الروسية أو جرمانيا أو الأندلس) الف دينار . أما التركي فكان يساوي نحو ستمائة . وأرخص منه العبد الأفريقي الأسود .

الرفاهية في العصر الاموي

ان اتساع الفتوح جعلت الناسَ في العصر الأموي يغتنون ، وجعل بيوت الأموال تمتلىء ، فقام الخلفاء والامراء والحكام باصلاحات كثيرة وبنَوُا القصور والمساجد ووسعوا على الموظفين وانصرف كثير من الخلفاء الى اللهو والترف . ثم ان هذا الغنى وهذه الرفاهية لم يكونا قاصرين على الخلفاء والامراء والحكام بل كانا عامّين في الرعية ، فقد بلغ من كثرة الأموال واتساع الغنى ان الرجل كان يطوف (في أيام عمر بن عبدالعزيز) بصدقته أو زكاته في الشام وافريقية فلا يجد مستحقاً لأخذها . ويمكننا ان نعلم مقدار الثروة المتداولة في العصر الأموي اذا نظرنا في هِبات الخلفاء والامراء للشعراء والاشراف والقبائل ، أو اذا نظرنا الى الموائد التي كان الامراء والحكام يَنْصِبونها في كل مكان . ان الحجاج وحدَه كان يقيم في كل يوم الف مائدة لأهل الشام وحدَهم . قد يكون في هذه الأخبار شيء قليل أو كثير من المبالغة ، ولكنها تدل بلا ريب على شيء كثير من الغنى في العصر الأموي .

وكان سكان البلاد في الدولة الأموية ، من حيث الجنس ، قسمين اثنين : العرب وغير العرب . أما العرب الذين نزلوا في الشام والعراق مع الفتح فقد ظلوا زماناً طويلاً أهل رِحلة ، مع أن معاوية بن أبي سفيان قد عمل كثيراً على تحضيرهم . وكان هؤلاء العرب إما يمانيين أو قيسيين ، وكانت العصبية فيهم ثائرة في أكثر الأحيان . ولقد كان من المنتظر أن يحملهم ازدياد الثروة بينهم على تناسي أحقادهم القديمة . ولكن الواقع أن تلك الثروات كانت تُذكي بينهم النزاع ، وخصوصاً اذا علمنا أن هؤلاء كانوا لا يعملون في الغالب عملاً يتكسبون به ، فقد كانوا يتناولون أُعْطِيات من بيت المال يعيشون عليها . ولما استقر هؤلاء في الشام والعراق سكنوا في أحياء متفرقة ، فكان أهل كل قبيلة ينزلون منزلاً خاصاً بهم . وهكذا عمل هذا التجاور في أحياء خاصة على حفظ عصبياتهم وعلى ما بين أهل

تلك العصبيات من عداء .

وأما أهل البلاد الأصليين فكان منهم عرب يمانية من الغساسنة في الشام ، ثم مناذرة في العراق . وكان منهم الآراميون في الشام والعراق ، وكان منهم أيضاً الفرس في العراق ، والقبط في مصر ، ثم الروم في الشام والعراق ومصر .

ولما خصّص عرب الجزيرة أنفسهم ، في كل مكان نزلوا فيه ، بالخلافة والقيادة والشعر ، استبد باقي سكان الدولة الاسلامية بالزراعة والصناعة والتجارة ونزلوا ، دون العرب ، في المدن والقرى . وهكذا نجد أن الحضارة المادية والعمران المدني كانا في سهم غير العرب .

وابتدأ الترف ، أول ما ابتدأ ، في بلاط الخلفاء ثم انتشر منه الى الشعب . فان معاوية لما قلب الخلافة ماكاً اتخذ من دون الرعية حجاباً واتخذ في الجامع مقصورة يصلي فيها ، ثم اتخذ سريراً للملك (عرشاً) .

ثم ان معاوية أتخذ ايضاً المجالس في الليالي يستمع فيها الى القُصّاص والإخباريين والشعراء . وكان يدير عليهم في تلك المجالس شراب الورد . ولكن يزيدَ ، فيما بعد ، شرب الخمر في تلك المجالس .

وشرب الأمويون الخمر[1] أيضاً على اختلاف فيما بينهم في المقدار . فالاصفهاني يخبرنا ان يزيد كان يشربها كل يوم . أما الوليد فكان يشرب مرة في كل يومين ، وهشام مرة في كل اسبوع يوم الجمعة ، وعبد الملك مرة في الشهر . وكان ليزيد الثاني (بن عبد الملك) قينتان : حبّابة وسلامة . ولقد بلغ الترف في الغناء والخمر اقصاه في بلاط الوليد الثاني (بن يزيد ابن عبد الملك) فقد زعموا انه كان يملأ حوضاً بالخمر ثم ينزل اليه ويكرع فيه حتى يتدنى سطحه .

وعُنِيَ الأمويون بأثاث دورهم الخاصة وأثاث دور الحكومة ، وكانت كلها تفرش في الصيف بأثاث الصيف وفي الشتاء بأثاث الشتاء .

---

(١) بين الرواة – وبين الفقهاء ايضاً – خلاف على « الخمر » التي كان يشربها الخلفاء .

ولقد تأنق الخلفاء بملابسهم وزيهم ، فكان هشام بن عبد الملك أعطر بني أميه ، « وكان حُبّبَ اليه التكاثر من الدنيا والاستمتاعُ بالكِساء ، لم يلبس ثوباً يوماً فعاد اليه » . وكذلك اشترط الخلفاء على الذين يدخلون عليهم ان يأخذوا لذلك زينتهم .

وكذلك أقام الخلفاء حلَبات السباق للخيول التي تجتمع في دمشق من جميع أقطار الدولة ثم توزع الجوائز على الفائزين . ولقد أُجريت الخيل حتى في أيام عمر بن عبد العزيز .

البناء خاصة

وبالغ الأمويون في الانفاق على العمران والبناء فانفقوا على الجامع الأموي في دمشق مالاً عظيماً ، وخصوصاً على زخرفته . ولا ريب في ان بناء هذا الجامع قد بدأ منذ عهد معاوية واستمر البناء فيه الى أيام الوليد ، وهو الذي زينه وزخرفه . وبما ان هذا الجامع قد قارب تمامه في أيام الوليد فانه يعرف باسم جامع الوليد .

وكانت مئذنة الجامع الأموي مربعة فانتشر هذا الشكل المربع للمئذنة شرقاً الى بيروت ومصر والمغرب والاندلس . أما في المشرق فكانت المآذن مستديرة لغلبة الهندسة الايرانية عليها ، اذ كانت الابراج الايرانية مستديرة .

الحرم الشريف في القدس : يضم الحرم الشريف في القدس ثلاثة مساجد ، مسجد الصخرة ومسجد عمر والمسجد الأقصى . أما مسجد الصخرة فهو بناء صغير مثمن تعلوه قبة كبيرة (بالاضافة الى حجمه) . ويعد مسجد الصخرة معَ صِغَره من أجمل المساجد في الاسلام شكلاً وتزييناً . ويقع مسجد الصخرة في النصف الشمالي من الحرم ، وهو من بناء عبدالملك .

أما مسجد عمر فهو مسجد بسيط يقوم عند الطرف الشرقي من الحرم في المكان الذي صلى فيه عمر بن الخطاب لما ذهب الى القدس ليتسلمها من البطرّيرك صفرونيوس . وأما المسجد الأقصى فهو المسجد الرئيسي في

الحرم وقد بني غرب مسجد عمر ومُحاذياً له ، وهو يشبه في تنظيمه الداخلي الجامع الأموي في دمشق والجامع العُمَري الكبير في بيروت .

وكما ان الامويين هم الذين أضافوا المئذنة الى المساجد فانهم ادخلوا فيها المقصورة (وهي غرفة داخلية يصلي فيها الحاكم أحياناً خوفاً من الاعتداء عليه) والمِحراب .

القصور

وكذلك عني الأمويون ببناء القصور في بادية الشام لقضاء الشتاء أو الصيف وللاستجمام فيها حينما كانوا يذهبون الى الصيد . وقد كانت هذه القصور مملوءة بأسباب الترف ومزخرفة بالفسيفساء والصور . من هذه :

(آ) قُصير عَمْرة ، وقد بناه الوليد بن عبد الملك شرق نهر الأردن (للاشتاء) . وكان قصير عمرة مزيناً برسوم للوليد ولُذَريق (آخر ملوك القوط في اسبانية) وبرسوم للحيوان والنبات وبصور عارية لاشخاص يرقصون .

(ب) قصر الحَيْر ، بناه هشام على نحو أربعين كيلو متراً من القريتين شرقاً في شمال (للاصطياف) .

(ح) قصر عند بقعة تعرف اليوم باسم خربة مَفْجر قرب اريحا (للاشتاء) ، بناه هشام ايضاً . ويمتاز هذا القصر برسوم جميلة وخصوصاً ما كان منها بالفسيفساء .

(د) الموقر ليزيد بن عبد الملك شرق نهر الأردن (للاشتاء) .

(ه) قصر بناه الوليد بن يزيد في ناحية تسمى المَشْتى شرق نهر الأردن (للاشتاء) .

المدن

واستحدث الأمويون مدناً كثيرة ، فقد بنى الحجاج مدينة واسط ، وبنى سليمان بن عبد الملك الرملة في فلسطين ، وبنى هشام بن عبد الملك الرُصافة غرب الرَقة (على الفرات) لينزلها في الصيف .

الحياة الادبية والفكرية

كان للحياة الأدبية والفكرية بيئتان أساسيتان : المسجد والمَرْبِد : أما المسجد فكان مركز العلم والتعليم . وكان رواة الحديث واللغة والادب ورجال الفكر يتخذون المساجد مراكز لهم يُملون فيها محفوظاتهم وآراءهم . وكان لكل عالم أسطوانة معروفة يوافيه اليها اتباعه وطلابه أو سائلوه وخصومه . ومن هنا نشأتْ لفظة « أساطين » (جمع اسطوانة) للدلالة على الرجل البارع في فن من الفنون الأدبية أو الفكرية .

أما المَربد فكان مركز الشعراء المتناقضين أو المتفاخرين ومركزاً للنزاع الأدبي السياسي يلتقي فيه اتباع الاحزاب المختلفة ، وربما اقتتلوا هناك .

والمربد (بكسر الميم وفتح الباء ، اسم آلة) عصا طويلة تحجز بها الأبل . أما المربد (بفتح الميم وكسر الباء ، اسم مكان) فهو سوق الأبل ، أو السوق العام في البصرة خاصة .

المظهر الأدبي للحياة الاموية

١ ـ إعجام القرآن وتحريكه (راجع الكلام على اصلاحات الحجاج) .

٢ ـ الخطابة : كانت الخطابة من مستلزمات الادارة يضطر اليها الخليفة والوالي والعامل والقاضي . ولكن اتفق ان برع فيها في العصر الأموي اشخاص كزياد بن أبيه والحجاج .

٣ ـ الشعر : عادت العصبية الى الشعر العربي بعد أن كان الاسلام قد جاء بالقضاء عليها . وكذلك عاد الغزل الصريح بعد ان كان عمر بن الخطاب قد نهى عنه .

(آ) شعراء النقائض ، كان هؤلاء يتكسبون بالخصومة السياسية ، وكانوا نحو مائة شاعر يتقسمون بين أصحاب الاحزاب المختلفة : الفَرَزْدَق والكُميت بن زيد من شعراء آل البيت ، جرير شاعر الزبيريين ، الأخطل شاعر بني أمية ، الطِرِمّاح شاعر الخوارج ، عُبيد الله بن قيس الرُقَيّات

شاعر قريش عامة . ولما ظهر بنو أمية على خصومهم مال اكثر هؤلاء الشعراء اليهم وتكسبوا منهم . وكان من الذين ثبتوا على مبدأهم الطِرِماح شاعر الخوارج .

(ب) شعراء الغزل العذري : قيس بن ذَريح والمجنون وغَيلان وجميل وكُثَيّر ، الا أن بعض هؤلاء كجميل وكثير شاركوا في المناقضات او مدحوا بني أمية .

(ح) شعراء الغزل الصريح : عمر ابن ابي ربيعة والأحوص والعَرْجي ووَضّاح اليمن .

(د) شعراء البدو ، وهم رُجّاز (ينظمون الشعر رجزاً لا قصيداً) وأشهر هؤلاء العجّاج .

٤ ــ الكتابة : تطورت الكتابة من الخطابة ، لأن الكتابة أصبحت من مستلزمات الإدارة بعد أن اتسعت رقعة الدولة الاسلامية وأصبح من المتعذر على الخليفة أو الوالي ان يجمع الناس فيخطُبَهم في أوامر الدولة . وهكذا كانت الرسالة الاولى في الحقيقة خطبة مدونة . غير ان الكتابة اقتضت تطويلاً وتنميقاً وتحميدات في المطالع والخواتيم (تتفق مع مقام الأشخاص الذين يتبادلونها ، كأن تكون من خليفة الى والٍ أو من والٍ الى خليفة) . ولما ترقت الكتابة أصبح لها ديوان كبير فيه موّظفون متعددون ، وأصبح للكتابة نفسها قواعدُ معينة . ولما جاء عبد الحميد أوجد للكتاب « نقابة » (راجع رسالة عبد الحميد الى الكتّاب) .

٥ ــ التدوين والتأليف

الصرف والنحو

الحديث والفقه (الزُّهري معاصر لعمر بن عبدالعزيز)

المغازي والتاريخ

رواية الشعر

المظهر الفكري للحياة الاموية

ان أقدم أوجه النشاط الفكري في الاسلام كان نشاط الاحزاب السياسية التي أصبحت مع الأيام فرقاً دينية . وكان هذا النشاط الفكري نزاعاً على الخلافة :

١ ــ أهل السُّنّة والجماعة (أي حزب الاكثرية « الجماعة ») ، وكانوا يسيرون على خطا الرسول والصحابة الأولين (السنة) . وكان هؤلاء حريصين على ان تكون الخلافة في قريش (أقوى قبائل العرب واشدها عصبية يومذاك) وان تكون بالانتخاب . وهؤلاء هم الذي أصبحوا فيما بعد أصحاب المذهب السني .

٢ ــ الشيعة : أنصار آل البيت وأشياع علي بن أبي طالب (وهم الأقلية) وكانوا يرون ان الخلافة يجب ان تنتقل بالارث .

٣ ــ الخوارج : هم أشياع علي الذين لا يقولون بأن الخلافة تكون بالارث بل بالانتخاب . ولا شك في أنهم كانوا أقل عدداً من الشيعة . فلما ادركوا ان الامام علي أقر التحكيم ثم رفض ان يعمل به ناظروه فقالوا له : ان معاوية (بتمسكه بالخلافة) يجب ان يكون إما مصيباً أو مخطئاً . فان كان مصيباً فاترك له انت الخلافة ، وان كان مخطئاً فسر بنا اليه حتى نقاتله . فلما لم يقرّهم الامام علي على مناظرتهم « خرجوا » من صفوفه . وكان الخوارج يرون ان الخلافة أمر دنيوي (كما كان يقول أهل السنة) ، ولكنها ليست ضرورية على كل حال . ان المراد من الخلافة ان تضبط أمور الناس ، فاذا اتفق الناس على ضبط أمورهم بأنفسهم لم يبق من حاجة الى خليفة ابداً .

٤ ــ الزيدية : اتباع زيد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب (راجع ص ١٢٠) . كان هؤلاء شيعة وكانوا يعتقدون ان الخلافة تكون بالتوارث وان علياً أحق الناس بها . ولكن بما أنّ الخلافة قد تولاّها ابوبكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي ، فانهم يقرون خلافة الثلاثة مع اعتقادهم ان علياً أفضل

منهم (فهم اذن يجيزون إمامة المفضول معَ وجود الأفضل).

٥ ـ المرجئة: ويمكننا ان نفهم آراء المرجئة اذا افترضنا انهم كانوا شيعة. رأى هؤلاء ـ بعد قيام بني أمية ـ ان الشيعة الذين لا يزالون يناصرون آل البيت ويعادون بني أمية متطرفون ذات اليمين (لأنهم ينصرون حزباً قد فقد قوته السياسية)، وان الخوارج الذين لا يزالون يحاربون بني أمية متطرفون ذات اليسار (لأنهم يرَوْن ان الخلافة ليست ضرورية). ثم انهم رأوا، فوق ذلك، ان الشيعة والخوارج لم يستفيدوا من قتال بني أمية شيئاً. من أجل ذلك أرادوا أن يشقوا لأنفسهم طريقاً وسطاً: لقد اعتقدوا أن بني أمية عموماً كانوا فاسقين لقتالهم علياً وآل بيته من بعده ولسلوكهم الشخصي أيضاً. ولكن هؤلاء الامويين يحوزون القوة السياسية والعسكرية ولا تمكن مقاومتهم، في الأحوال الراهنة، مما دلت عليه التجارب خلال نصف قرن من الدهر. لذلك قرر هؤلاء (الذين عرفوا فيما بعد باسم المرجئة) ان يقبلوا سلطان بني أمية السياسي وان يظلوا (كإخوانهم الشيعة والخوارج) منكرين عليهم فسقهم وظلمهم، ولكن من غير ان يقاتلوهم. ثم عللوا موقفهم هذا بأن «الحكم على المسلم بالايمان أو بالكفر أمر خارج عن طوق الانسان وراجع الى الله. لذلك قالوا: «نحن نطيعهم في الدنيا ونُرجىء الى الله تعالى الفصلَ في أمرهم يوم القيامة». ومن هنا جاءهم اسم المرجئة.

انقلاب الكفاح السياسي جدالا دينياً

لما قوي أمر بني أمية وأصبح الشيعة والخوارج والزيدية كلهم عاجزين عن مقاومتهم انقلبوا يتجادلون في أمرهم. في هذا الدور بدأت الآراء والحجج التي تبرر قتال الامويين تتبلور. ولقد دل تطور هذه الآراء والحجج على أن الخلاف بين شيعة آل علي بن أبي طالب وبين الأمويين كان نزاعاً سياسياً ثم انقلب جدالاً دينياً فلسفياً. على أن هذا الجدال الديني

كان لا يستند الى النظريات السياسية ولا الى قواعد المنطق. بل كان يستند الى الأقوال المَرْوية. وكان سَنَدَ هذه الأقوال الثقةُ بالرجال الذين رَوَوْه (كما كان الشأنُ في رواية الحديث والاخبار). من أجل ذلك كان من المنتظر طبعاً ألاّ تثقَ فرقة الا بأقوال رجال ينتسبون اليها. وهكذا كان الشيعة يفضلون الرواة من آل البيت، وكذلك كان الخوارج يفضلون الرواية التي تتصل بهم من طريق رجالهم هم.

قيام المعتزلة

إذا كان عليٌّ قد حارب عائشة، وكلاهما من الصحابة، فأيهما المخطىء وأيهما المصيب؟ وهل يعاقب المخطىء منهما على خطأه؟ ثم هل المخطىء اطلاقاً مخطىء بارادته أم بغير ارادته؟ ثم هل الانسان قادر على أعماله مُخَيَّر في عمل ما يعمل وترك ما يترك، أم أنه مُجْبَر على اعماله، يعمل ما يعمل ويترك ما يترك بغير ارادته؟ ثم من الذي يحكم في هذه الأعمال أخطأ هي أم صواب: آلعقل أم روايات الرجال؟

هذه السلسلة المتعانقة من الاسئلة كانت تمثّل الاضطراب الفكري في العصر الأموي، وكان الناس يسألون عنها أئمة عصرهم علّهم يجدون عندهم قولاً فصلاً أو جواباً شافياً.

ويبدو أن تشدد الخوارج (وكانوا يقولون إنّ المسلم لا يكون مؤمناً حقاً الا اذا توفرت فيه جميع شروط الايمان ثم عمل بمقتضاها كلها ولم يأت معصية قط)، وانّ تساهل المرجئة (وكانوا يقولون ان المسلم اذا آمن بالله ثم ارتكب المعاصي، فان هذه المعاصي لا تضره ولا تَنْقُص من ايمانه شيئاً) لم يُدخلا اطمئناناً على النفوس. لذلك كان من المنتظر ان ينشأ بين الخوارج وبين المرجئة مذهب يشق طريقاً وسطاً، فنشأ مذهبٌ «اعتزل أصحابه قول الخوارج وقول المرجئة» فقالوا: ان مرتكب الكبيرة ليس مؤمناً حقاً لأنه ترك شرطاً من شروط صحة الايمان، وكذلك

ليس هو كافراً لأنه لا يزال (بعد ارتكابه تلك المعصية) يتمتع بشروط كثيرة من شروط الايمان. فهو اذن في منزلة بين المنزلتين، أي أنه «فاسق» (بين المؤمن والكافر).

ان حركة الاعتزال التي يبدو لنا انها بدأت معَ مَعْبد الجُهَنِي الذي قتله الحجاج لأنه ثار عليه مع عبدالرحمن بن الأشعث، ثم ما زالت تتطور وتتسع حتى أيام الحسن البصري المتوفى سنة ١١٠ هـ (٧٢٨ م)، في أيام هشام بن عبدالملك، كانت تضم في أواخر العصر الأموي رؤوس المسائل التالية:

- أمُخَيَّر الإنسان في أعماله أم مُجْبَر عليها؟
- أيَخْلُد صاحب الكبيرة في النار؟
- اذا توفي غير المسلم صغيراً، أفيذهب الى الجنة أم الى النار؟
- أللهِ ذوات أم له صفات زائدة على ذاته؟
- ما معنى «القرآن كلام الله»؟
- ما مقام العقل في الحكم على الأمور؟

أما المعتزلة فكانوا يجعلون العقل حكماً في كل شيء حتى قالوا: اذا اختلف العقل والنقل (عن الرجال) فاتبع العقل، ثم قالوا بأن الانسان مخير في أعماله.

ولقد اشتهر من رؤساء المعتزلة معبد الجهني (قتله الحجاج سنة ٨٢ هـ = ٧٠١ م) والحسن البصري (ت ١١٠ هـ) وواصل بن عطاء (ت ١٣١ هـ) وعمرو بن عبيد (ت ١٤٥ هـ في أيام المنصور). وتبنى مذهب الاعتزال من خلفاء بني أمية يزيد بن الوليد (ت ١٠٥ هـ) ومروان بن محمد، وقاومه عمر بن عبدالعزيز.

فهرست أعلام الأشخاص

م = مكرّر ؛ ح = في الحاشية

ب ـ ث

ج ـ ح ـ خ

كتب للمؤلف

تاريخ الفكر العربي	١٢٠٠
الفكر العربي في منهاج البكالوريا اللبنانية	٨٠٠
تاريخ الادب العربي : الجزء الاول (الادب القديم : الجاهلي والاموي)	١٤٠٠
التبشير والاستعمار (بالاشتراك مع الدكتور مصطفى خالدي)	٣٠٠
عبقرية العرب في العلم والفلسفة	٣٠٠
الاسرة في الشرع الاسلامي	٤٠٠
تاريخ الجاهليّة	٤٠٠
العرب والاسلام في الحوض الغربي من البحر الابيض المتوسّط	٤٠٠
الطريق الى النجوم	٤٠٠
القومية الفصحى	٣٠٠
شاعران معاصران (ابراهيم طوقان وأبو القاسم الشابيّ)	٣٠٠
الشابيّ شاعر الحب والحياة	٣٥٠
أبو تمّام	٣٥٠
حكيم المعرة	٢٠٠
أبو العلاء المعرّي	٢٠٠
العرب والفلسفة اليونانية	٢٥٠
أبو نواس	١٥٠
الثقافة الغربية في رعاية الشرق الاوسط	١٥٠
الاسلام على مفترق الطرق	١٥٠

المنهاج في تاريخ الادب العربي

الجزء الاول (للسنة الرابعة الثانوية) ٢٠٠

الجزء الثاني (للسنة الخامسة) ٢٨٠

الجزء الثالث (للسنة السادسة) ٥٠٠

ابن باجّه ١٠٠

ابن طفيل ١٠٠

التصوّف في الاسلام ٢٠٠

صفحات من حياة الكندي ١٥٠

وثبة المغرب ٥٠٠

أبو فراس ١٥٠

اخوان الصفا ١٥٠

بشار بن برد ١٢٥

خمسة شعراء جاهليّون ١٥٠

أربعة أدباء معاصرون ١٠٠

الفارابيان : الفارابي وابن سينا ١٠٠

شعراء البلاط الاموي ١٢٥

نهج البلاغة ٥٠

اثر الفلسفة الاسلامية في الفلسفة الاوروبية ٧٥

الحجّاج بن يوسف ٤٠

عمر بن أبي ربيعة ٧٥

عبد الله بن المقفّع ٤٠

الرسائل والمقامات ١٠٠

ابن الرومي ٥٠

أحمد شوقي ٦٠

ابن خلدون ٥٠

IN ARABIC

ISLAM and the ARABS

IN THE EASTERN MEDITERRANEAN DOWN TO THE FALL OF THE UMAYYAD CALIPHATE (132 A.H. / 750 C.E.)

—■—

By

DR. PHIL. OMAR A. FARRUKH

Member of the Arab Academy, Cairo

Member of the Arab Academy, Damascus

Member of the Islamic Research Association, Bombay

Second Edition

BEIRUT 1966

السعر ٣٠٠ ق ل.